الفصل السابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

كثر الغزل فى هذا العصر كثرة مفرطة ، حتى ليمكن أن يقال إن جميع الشعراء عُنوا بالنظم فيه ، وهى عناية أعدَّته لكى يزدهر ازدهاراً واسعاً ، إذ تداوله أفذاذ الشعراء ، وصاغوه بعقلياتهم الخصبة الحديثة وما أوتوه من قدرة على التوليد فى المعانى القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة . وقد مضوا يتسعون بكل صوره القديمة حتى النسيب ووصف الأطلال والديار الدارسة ، فقد استبقوا هذا الوصف ، وحاولوا أن يبثوا فيه طوابع فكرهم الدقيق وإحساسهم الحضرى المرهف ، على نحو ما مرَّ بنا فى الفصل الرابع .

وقد مضى الغزل يجرى فى نفس التيارين اللذين اندفع فيهما منذ عصر بنى أمية ، ونقصد تيارى الغزل الصريح والغزل العفيف ، وكان التيار الأول أكثر حدة وعنفاً ، بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان روميات وخراسانيات وغير خراسانيات وروميات ، إماء وقيان من كل جنس ، وقد أخذن يتسلطن على الحياة العباسية ويُشِعْن فيها كثيراً من صور التحلل الخلقى ، مستبدلات بمكان الحرائر القديم من الشعراء . ونفس الشعراء كانت كثرتهم من الموالى الذين نبذوا التقاليد الخلقية الإسلامية والعربية ، إما بعامل الزندقة والشعوبية ، وإما بعامل الترف وما ينتشر معه من فساد الأخلاق . وشتان بين الغزل الصريح فى هذا العصر عند مطيع ابن إياس وأبى نواس وأضرابهما وبينه فى العصر الأموى عند عمر بن أبى ربيعة والأحوص وأمثالهما ، إذ كانوا يحتفظون بغير قليل من الوقار والحشمة ، أما مطيع وأبو نواس وبشار ونظراؤهم العباسيون فقد خرجوا عن كل حشمة ووقار خروجاً يشبه أن يكون ثورة ، بل هو ثورة حقيقية ، فهم يتحدثون فى غزلهم عن غرائزهم

النوعية فى غير تعفف ولا حياء ولا كرامة ، وقد استحدث كثيرون منهم — باستثناء بشار — ضرباً جديداً من هذا الغزل الصريح ، وهو الغزل بالغلمان ، وهو يصور ما انتهت إليه حياتهم من الفساد ، لكثرة الرقيق ، وقد أطلقوا لأنفسهم فيه العنان لا يرعوون ولا يستحون .

وكان يجرى بجانب هذا التيار تيار الغزل العفيف ، ولكن مجراه أخذ يضيق ضيقًا شديداً بالقياس إلى عصر بنى أمية إذ كان يتسع حتى يشمل بوادى الحجاز وحتى تجرى أسراب منه فى مكة عند أمثال عبد الرحمن الجُشَمىّ الملقب بالقَسّ لنسكه وفى المدينة عند أمثال عروة بن أذينة . ومن أعلامه فى البوادى قيس بن ذَريح وجميل بن معمر العُذْرى ، حيث نجد الحب النقى الطاهر الذى يملك على الشاعر كل عواطفه وأهوائه ، حتى ليصبح ضرباً من الهيام القوى الحادّ الذى يدفع الشاعر إلى التغنى بمحبوبته فى شعر عذب لا يخدش حياء ، شعر يموج بالحرمان وحرارة العشق وشدة الظمأ الذى لا ينتهى . وطبيعى أن يضعف هذا التيار فى العصر العباسى الأول الذى قلما عرف فيه الشعراء العفة والطهر ، ومع ذلك فقد بقيت له بقية عند العباس بن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجوارى ثم بِعْنَ وضُرِب بينهم وبينهن حجاب صفيق ، فعاشوا يتعذبون بالحب ، وعاش الحب فى قلوبهم قويًّا حادًّا ، ومن خير من يصور ذلك على بن أديم الكوفى الذى أحب جارية تسمى « منهلة » منذ صغرها ، حتى إذا أدركت باعها أهلها لبعض الهاشميين ، فطار لبه ، وبكاها بكاء حارًّا بمثل قوله[1] :

صاحوا الرحيلُ وحثَّنى صَحْبى ... قالوا الرواح فطيَّروا لُبّى
لا صَبْرَ لى عند الفِراق على ... فَقْد الحبيب ولوعةِ الحبِّ

ويقول أبو الفرج : « له حديث طويل معها فى كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما ، فيه ذكر قصصهما وقتاً وقتاً وما قال فيها من الأشعار ، وأمرهما متعا لَمٌ عند العامة » وفيها يقول[2] :

يا نُصْبَ عينىَ لا أرى ... حيث التفتُّ سواكِ شَيَّا

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٥/٢٦٧. (٢) أغانى ١٥/٢٦٥ .

إنى لمَيْتٌ إن صَدَدْ تِ وإن وصلتِ رجعتُ حَيّـا

وعلى شاكلته محمد بن أمية ، وكان يهوى جارية تسمى خِدَاع رآها تغنّى ببعض دور النخاسة ، فشُغف بها شغفاً شديداً واتصلت زياراته لها ، وبادلته حبّاً بحب ، ولقيته ، ولكنها ظلت تدافعه عن نفسها ، وكثيراً ما كانت تعده الزيارة ولا تزوره . وهو يقول لها دائماً إنى أحبك إنى أنتظرك ، من مثل قوله[1] :

رُبَّ وَعْدٍ منكِ لا أنساهُ لى أوجبَ الشكرَ وإن لم تفعلى
أقطعُ الدهرَ بظَنٍّ حَسَنٍ وأُجَلِّى غَمْرَةً ما تَنْجَلِى
كلما أمَّلْتُ يوماً صالحاً عرضَ المكروهُ لى فى أملى
وأرى الأيام لا تُدْنِى الذى أرتجى منكِ وتُدْنى أجلى

وبينما هو يمنى نفسه باقتطاف ثمرة الحب اشتراها بعض ولد المهدى ، فحُجبَتْ عنه وانقطع ما بينهما إلا مكاتبة ومراسلة . واستقر حبها فى قلبه وملك عليه كل شىء من أمره ، فمضى يتغنى بها طويلا ، وكان خُلاّنه يلومونه ويقولون له : إنها تبخل عليك بودّها ، فَدَعْها إلى غيرها ، فينشدهم مثل قوله[2] :

أأنْ حُجِبَتْ عنى أجود لغيرها بودّى وهل يُغْرى المحبَّ سوى البُخْلِ
أسَرُّ بأن قالوا تَضِنُّ بودّها عليك ومن ذا سُرَّ بالبُخْل من قبلى

وبونٌ بعيد بين حرارة هذا الغزل العفيف والغزل المماثل له فى عصر بنى أمية الذى نقرؤه عند قيس بن ذريح وأضرابه ، فإن غزلهم يصور حبّاً جامحاً ، وكأن فى صدورهم شواظ نار ، فهم يألمون كما لم يألم أحد ، ألماً تعجز النفوس العادية عن احتماله ، ألماً يعصف بهم كالسيل المندفع الذى لا يترك لهم رويّة ولا أناة ، إنما يترك لهم الحزن الممض والدموع الغزار . ومن أجل ذلك نقول : إن الغزل العذرى فى العصر العباسى الأول قد أخذ يضيق مجراه ، لأنه لا يبلغ من التأثير فى النفس والقلب ما يبلغه الغزل العفيف الأموى ، وكأنما أفسدت الحضارة هذا الفن ، فإذا هو يجرى فيه التكلف ولا يكاد يؤثر فى العاطفة والشعور إلا قليلاً .

على أنه من الخطأ أن نضع حدّاً فاصلاً فى هذا العصر بين الغزل العفيف والغزل

---

(١) أغانى ١٢/١٤٤ .
(٢) أغانى ١٢/١٥٣ .

الصريح فإنه تلقانا عند المصرحين الذين لا يحتشمون ولا يتوقّرون ، والذين يعبرون عن الحب الجسدى حب الغرائز الذى لا يخلو من الفسوق والإثم أسراب مختلفة من الحب المبرّح تجعلهم يقتربون أحيانا من أصحاب الحب العفيف ، واقرأ فى بشار مثلا فستجد عنده كثيراً من الغزل الآثم ، وستجد بجانبه غزلا ، فيه لوعة ، وفيه ألم وسهاد ، وفيه صبوة يسودها غير قليل من الاحتشام ، على نحو ما يلقانا فى أشعاره لصاحبته عَبْدة ، ومثله أبو نواس فى أشعاره لجنان جارية الثقفيين ، وقد ظلت تحلق بعيداً عنه وراء السحب ، والحب يضنيه ويبرّح به ، ونضرب مثلا من شعر هؤلاء الخليعين الماجنين يصور كيف كان الحب أحيانًا يستأثر بكل ما فى قلوبهم من هوى وعاطفة ، وكيف كانوا يتعمقون فى دقائقه تعمقًا يفضى إلى كثير من السعة والجمال ، وهو هذه القطعة التى أنشدها صاحب الأغانى لآدم حفيد عمر ابن عبد العزيز ، وكان خليعًا ماجناً فى أول أمره ، وفيها يقول لصاحبة له [1] :

أحبُّكِ حُبَّيْنِ : لى واحدٌ ... وآخَرُ أَنَّكِ أهلٌ لذاكِ
فأما الذى هو حبُّ الطِّباعِ ... فشَيْءٌ خُصِصْتِ به عن سواكِ
وأما الذى هو حبُّ الجمالِ ... فلستُ أرى ذاك حتى أراكِ
ولستُ أمنُّ بهذا عليكِ ... لك المَنُّ فى ذا وهذا وذاك

وقد أدخلت رابعة العدوية تعديلاً قليلا على هذه القطعة ، فأصبحت أمًّا للشعر الصوفى كله على نحو ما سنرى فى حديثنا عن شعراء الزهد . وفى الأغانى حشد هائل من أشعار عباسية تتخلص من المادة وأدرانها وتصور جحيم الحب ونعيمه ، كانت تجرى على ألسنة المجان وأشباههم .

ومرّ بنا فى الفصل الرابع أن شعراء هذا العصر استخرجوا كثيراً من دفائن المعانى فى غزلهم ، فقد كان عقلهم خصباً يقتدر على تشعيب المعانى وتحليلها واستنباط كثير من دقائقها . وكثير من غزلهم لا يصور ذلك فحسب ، بل يصور أيضًا حسهم المترف الدقيق وشعورهم الرقيق المرهف ، وقد صورنا ذلك من بعض الوجوه فى حديثنا عن أعلامهم فى الفصل الخامس . وظاهرة ثالثة هى كثرة العبارات اللينة

---

(١) أغانى ١٥/٢٨٩ .

فى غزلهم ، وهى شىء طبيعى مردّه إلى حياتهم المتحضرة وأنهم كانوا يتجهون بأكثر غزلهم إلى الجوارى المغنيات ، ولم يكنّ متبدّيات إنما كن متحضّرات ، فكانوا يختارون لهن اللفظ السهل البسيط الذى يلمس القلوب لمساً بدون أى حجاب . وظاهرة رابعة هى شيوع الأوزان المجزوءة والقصيرة فى هذا الغزل ، وقد أوضحنا فى كتاباتنا عن عصر بنى أمية نشوء هذه الظاهرة فى شعر الغزل الأموى بسبب معانقته لنظرية الغناء التى استحدثها الموالى الأجانب ، وكيف أن هذه النظرية دفعت الشعراء دفعاً إلى الملاءمة الدقيقة بين غزلهم وأصوات الغناء ، ووضعه بحيث يؤدّى ما يريدونه من مدّ أصواتهم بالألحان والهمس بها ، وهى غاية أحدثت فى الأوزان القديمة كثيراً من التجزئة وكثيراً من صور الزحافات ، وما زالت هذه الصور تتسع حتى استكشف الوليد بن يزيد وزن المجتث .

وقد بسطنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » كيف أن هذه الظاهرة نمت فى غزل العباسيين بنمو الغناء ، وكيف دفعت إلى ظهور أوزان جديدة ، هى أوزان المقتضب والمضارع والمتدارك . وفى الفصل الرابع من هذا الكتاب تصوير موجز لذلك . وينبغى أن ننبّه هنا إلى أن الغزل هو الذى دفع الشعراء دفعاً إلى التحوير فى الأوزان القديمة تحويراً نفذوا منه إلى كثير من صور التجديد فيها وفى القوافى .

وظاهرة خامسة تقترن بالجوارى اللائى كان ينظم فيهن الشعراء ، وذلك أن كثيراً منهن كن مثقفات يحسنّ صوغ الشعر ونظمه ، فكان الشعراء يراسلونهن ، وكانوا أحياناً يفضون إليهن ويتطارحون معهن شعر الغزل . ومن أشهرهن فى هذا الباب عَريب جارية المأمون ومتيم جارية على بن هشام ودنانير جارية البرامكة وقد عقد ابن المعتز فى آخر كتابه « طبقات الشعراء » فصولاً لطائفة منهن ، على رأسهن عنان جارية الناطفى ، ويقول ابن الجراح : « كانت تجلس للشعراء ويجتمعون إليها ، فيلقى عليها كل رجل منهم الأبيات الغريبة والمعانى النادرة فتجيبه بديها[1] » ويروى بعض محاوراتها مع أبى نواس ، من ذلك أنه دخل عليها فوجد الناطفى مولاها قد ضربها وهى تبكى فقال :

---

(١) كتاب الورقة لابن الجراح ص ٣٩ .

بكتْ عنانٌ فجرى دَمْعُها كالدرِّ قد تُوبع فى خيطهِ

فقالت ، والعبرة فى حَلْقها :

فليت من يضربها ظالماً تجفُّ يمناه على سَوْطهِ

ويروى ابن الجراح أن شخصاً وجد بيتاً فى كتاب ، أعجبه ، فطلب من يجيزه وعزَّ عليه الطلب ، فلجأ إليها ، وأنشدها البيت :

وما زال يشكو الحبَّ حتى سمعتُه تنفَّس من أحشائهِ أو تكلَّما

فما لبثت أن قالت :

ويبكى فأبكى رحمةً لبكائهِ إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

وقد أشاع هؤلاء الجوارى الشواعر كثيراً من الظرف والرقة فى الغزل العباسى ، إذ كن يعجبن باللمحة الدالة والخاطرة الدقيقة . وغيرهن من الجوارى كن يشاركنهم فى تذوق الشعر ، وكن يكتبن ما يستحسنَّ منه على عصائبهن ومراوحهن كما مرَّ بنا فى الفصل الثانى . وكل ذلك عمل على ازدهار الغزل فى هذا العصر ازدهاراً واسعاً ، ونحن نقف عند شاعرين من شعرائه ؛ أحدهما من أصحاب الغزل العفيف ، وثانيهما من أصحاب الغزل الصريح ، ولكن دون نبو على الذوق ودون ما يؤذى النفوس المهذبة ، وهما العباس بن الأحنف وربيعة الرَّقّى .

العباس بن الأحنف [1]

عربى من بنى حنيفة ، كان آباؤه ينزلون فى خراسان ، واتصلوا بالعباسيين ولمع منهم عمه حاجب إذ انتظم بين رجال الدولة ، ومنشأ العباس ومَرْباه ببغداد ، ويظهر أنه نشأ فى نعمة وثراء ، جعلاه ينصرف عن شعر المديح الذى كان يجذب إليه عامة الشعراء طلباً للنوال والعطاء . وقد أخذ يعيش حياة مترفة ، يختلط فيها بالشعراء من

(١) انظر فى العباس وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٥٤ وابن قتيبة ص ٨٠٣ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٨/٣٥٢ و ١٦/٣٤٣ — ٣٤٥ و(طبعة الساسى) ١٥/١٣٥ وتاريخ بغداد ١٢/١٢٧ وشذرات الذهب ١/٢٣٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدباء ١٢/٤٠ وقد نشرت ديوانه وحققته عاتكة الخزرجى وطبعته بمطبعة دار الكتب المصرية .

أمثال أبى نواس وغير أبى نواس ، ولكن دون أن يتردّى فى خلاعتهم ومجونهم . وقد يحضر مجالس الأنس والشراب ولكن دون تعمق ودون إثم ، وفى ذلك يقول ابن المعتز : « كان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه ، وكان جواداً لا يُليق درهما ولا يحبس ما يملك » . وفى أشعاره وصف للكرة والصولجان يدل على أنه كان يمارس هذه الرياضة . ويقولون إنه كان فيه ظرف . وكأنه كان مثال العربى البغدادى المهذب فى عصره الذى أخذ بأسباب الترف والنعيم أخذاً كان له أثره فى ذوقه المصنى المهذب وشعوره الرقيق المرهف . وقد مضى ينفق حياته فى التغنى بعواطفه وحبه ، وفى ذلك يقول أبو الفرج : « كان العباس شاعراً غزلا ظريفاً مطبوعاً . . وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق ولمعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف فى شىء من هذه المعانى ، وقدّمه أبو العباس المبرد فى كتاب الروضة على نظرائه وأطنب فى وصفه . وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه ، وقال : كان العباس من الظرفاء ، ولم يكن من الخُلعَاء ، وكان غزلا ولم يكن فاسقاً ، وكان ظاهر النعمة ملوكى المذهب شديد الترف ، وذلك بيّن فى شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلواً مقبولا غير لاّ غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف فى الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحاً » . وقد فتح اشتهاره بالغزل باب قصر الرشيد أمامه ، حتى أصبح من ندمائه ، وحتى صحبه فى غزواته بأرمينية وأذربيجان ، ذلك أنه كان إذا غاضب إحدى جواريه أو أدلّت عليه أمره بصُنْع أبيات يغنّى فيها إبراهيم الموصلى ، فتعود صاحبته إليه ، ويتصل بينهما ما انقطع ، من ذلك أنه غاضب ماردة أم المعتصم ، وتوقع أن تبدأه بالترضى ، فلم تفعل حتى أقلقته وأرّقته ، وصار بأمرّ عيش ، وعرف ذلك جعفر البرمكى ، وقيل الفضل بن الربيع ، فأعلم العباس القصة وطلب إليه أن يقول فى ذلك شيئاً ، فلم يلبث أن قال :

العاشقان كلاهما متجنِّبُ وكلاهما مُتَعَتِّبٌ متغضِّبُ

صدَّتْ مغاضبةً وصدَّ مغاضباً وكلاهما مما يعالجُ مُتْعَبُ

راجعْ أحبَّتك الذين هجرتهَم إن المتيَّم قلما يتجنَّبُ
إن التجنُّبَ إن تطاول منكما دَبَّ السُّلُوُّله فعَزَّ المَطْلَبُ

وألقاها إلى إبراهيم الموصلى فغنّى بها الرشيد ، فلما سمعها بادر إلى ماردة فرضّاها . ويقال إنها أمرت للعباس وإبراهيم بعشرين ألف درهم مناصفة وأمر لهما الرشيد بأربعين ألفا .

وانعقدت الصلة بينه وبين محمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر ، وتصادف أن رأى عنده جارية جميلة تسمى فوز ، فوقعت فى قلبه ، وأخذ يكثر من زياراته ، وهو إنما يريدها ، وعرفت حبه ، فكانت تصدّ عنه ، وهو يزداد حبًّا وشكوى من أنها لا تقبل عليه ، وأكثر من تصوير إعراضها عنه بمثل قوله :

قالتْ ظلومُ سميَّة الظُّلْم مالى رأيتك ناحلَ الجِسْمِ
يا مَنْ رَمَى قلبى فأَقْصَده أنت العليم بموضع السَّهْمِ[1]

وأخذ يكثر من شكواه وتضرعه مصوراً سهاده وما دلعته من نيران العشق فى قلبه ، وغدا مستهاماً بها يحبها كل الحب ويُفْتَنُ بها كل الفتون ، حتى لكأنها غدت ليلى وغدا المجنون ، فهو دائماً يصف صبابته بها ووجده وجداً لم يجده أحد ، وجداً يتعمقه حتى ليصطلى بناره المحرقة ، وقد مضى يصور ذلك لا فى قصيدة أو قصائد معدودة وإنما فى ديوان رائع ، تجد فيه النفوس غذاء روحيًّا ممتعا ، لأنه يرتفع عن الحس والمادة ارتفاع الشعر العذرى الأموى ، بما يصف من حب لا يخمد أواره ، من مثل قوله :

الحبُّ أول ما يكون لجاجة تأْتى به وتسوقه الأَقدارُ
حتى إذا سلك الفتى لُجَجَ الهوى جاءتْ أمورٌ لا تُطاق كِبارُ
نَزَف البكاءُ دموعَ عينك فاسْتَعِرْ عيناً لغيرك دمعها مدرارُ
من ذا يُعيرك عَيْنه تبكى بها أرأيتَ عيناً للبكاء تُعارُ

(١) أقصده : أصابه .

وقوله :

أُحْرَمُ منكم بما أقولُ وقد ... نال به العاشقون مَنْ عشقوا
صرتُ كأنّى ذُبالةٌ نُصِبَتْ ... تضيءُ للناس وهْى تحترقُ

وكانت تكثر بينه وبينها المراسلات ، وربما زارته زورة قصيرة ومضت ، مخلّفة وراءها حسراته وآلامه وعذابه ، وربما اضطرت إلى أن تهجره طويلا أو قصيراً أو أن تزورَّ عنه فى بعض زياراته لها ، فكان يجزع أشد الجزع ويبكى أحر البكاء بمثل قوله :

أبكى الذين أذاقونى مودّتهم ... حتى إذا أيقظونى للهوى رَقَدُوا
جاروا علىَّ ولم يوفوا بعهدهمُ ... قد كنت أحسبهم يوفون إن عَهِدوا
لأخرجنَّ من الدنيا وحبُّكمُ ... بين الجوانح لم يشعر به أَحَدُ

وقوله :

لما رأيت الليل سَدَّ طريقَهُ ... عنى وعذَّبنى الظلامُ الرَّاكِدُ
والنَّجْمُ فى كبدِ السماء كأنه ... أعمى تحيَّر مالديهِ قائدُ
ناديتُ مَنْ طرد الرقادَ بصَدِّه ... مما أُعالج وهْو خِلْوٌ هاجد
ألقيتَ بين جفون عينى حرقةً ... فإلى متى أنا ساهرٌ يا راقد

وفى قصيدة هذه المقطوعة يقول :

والله لو أن القلوبَ كقلبها ... مارقَّ للولد الصغير الوالِدُ

وخرجتْ من مِلْك محمد بن منصور إلى ملك بعض أمراء البيت العباسى وحجَّ بها ، فمضى يبكيها بدموع غزار مصوراً حبه لها وهيامه فى أشعار كثيرة من مثل قوله من رسالة شعرية أرسل بها إليها :

أزينَ نساء العالمين أجيبى ... دعاء مشوقٍ بالعراق غريبِ
كتبتُ كتابى ما أُقيم حروفَه ... لشدة إعوالى وطول نحيبى

أخطُّ وأمحو ما أخطُّ بعبرةٍ   تسحُّ على القِرْطاس سَحَّ ذَنوب[١]
أيا فوزُ لو أبصَرْتِني ما عرفتني   لطول نحولى بعدكم وشحوبى
وأنتِ مِنَ الدنيا نصيبي فإن أمت   فليتكِ من حُور الجنان نصيبي
أرى البَيْن يشكوه المحبون كلهم   فياربِّ قرِّبْ دارَ كلِّ حبيب

وعادت ، وعاد له عذابه بها كما لم يتعذب أحد ، وقد ظل يهتف باسمها وحبها حتى وافته منيته سنة مائة واثنتين وتسعين . ويقال إنه خرج مع غلام له إلى بعض الرياض ، وقد اعتراه ضعف شديد ، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه ، وهو لا يكاد يرفعه ضعفا ، وأنشأ يقول :

ياسقيمَ الجسم من مِحَنِهْ   مُفْرَدًا يبكى على شَجَنِهْ
كلما جَدَّ البكاءُ به   دَبَّتِ الأَسقام فى بدنه

ثم أغمى عليه ، وأقبل طائر فوقع على الشجرة ، وجعل يغرِّد ، فسمع تغريده ، وفتح عينيه ، وقال :

ولقد زاد الفؤادَ شَجًى   طائرٌ يبكى على فَنَنِه
شَفَّه ما شفَّنى فبكى   كلُّنا يبكى على سَكنه

ثم تنفس تنفسًا مديداً فاضت فيه نفسه .

وواضح من كل ما قدمنا أن غزل العباس عذرى طاهر نقى وأنه يمتاز بجزالة اللفظ مع عذوبته كما يمتاز بغزارة المعانى والخواطر حتى لكأنما يستمد من معين فى نفسه لا ينضب . وكان يعمد أحيانا إلى شيء من صور البديع ، غير أنها تأتى عفواً ، ولا تؤثر أى تأثير فى قوة العاطفة وانطلاقها كالسيل المندفع .

ربيعة الرَّقِّى[٢]

هو ربيعة بن ثابت ، من أهل الرَّقة ، بها مولده ومنشؤه ، وكان ضريراً ، وتفتحت شاعريته مبكرة ، فأخذ شعره يشيع ، حتى رقى إلى سمع المهدى ،

---

(١) الذنوب : الدلو المملوءة .
(٢) انظر فى ربيعة وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ١٥٧ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/٢٥٤ ومعجم الأدباء ١٠/١٣٤ ونكت الهميان ص ١٥١ .

obeikandi.com

فأشخصه إليه ، فمدحه بعدة قصائد ، وأثابه عليها عطاء جزيلا . غير أنه حَنَّ إلى موطنه ، فعاد إليه ، وكان لا يبرحه إلا قليلا ، مما كان سبباً فى إخمال ذكره ، لبعده عن بلاط الخلفاء ومخالطة الشعراء فى بغداد . ولم تَرْوِ له كتب الأدب شيئاً من مديحه فى المهدى إنما روت له مقطوعة من قصيدة بديعة قالها فى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس صَفِىّ الرشيد ، وفيها يقول :

لو قِيل للعباس يا بن محمَّدٍ ... قل : لا ، وأنت مخلَّدٌ ، ما قالها

ما إنْ أَعُدُّ من المكارم خَصْلةً ... إلا وجدتك عَمَّها أو خالَها

وإذا الملوك تسايروا فى بلدةٍ ... كانوا كواكبها وكنتَ هِلالَها

وجزاه جزاء بخساً إذ بعث إليه بدينارين ، فجُنَّ غيظا ، وهجاه هجاء مريرا . وعلم الرشيد القصة فغضب على العباس ، وأمر لربيعة بثلاثين ألف درهم وخلعة . وممن صَلِىَ هجاءه لنقص عطائه معن بن زائدة ، ومنهم يزيد بن أُسَيْد السُّلَمى ، وكان قد ردَّه ردًّا غير جميل ، بينما أوسع له فى العطاء يزيد بن حاتم المهلبى ، فمضى يقول أبياته السائرة :

لشتَّان ما بين اليزيدين فى النَّدَى ... يزيد سُلَيْمٍ والأَغرّ ابن حاتمِ

يريد سُلَيمٍ سالم المال والفتى ... أخو الأَزْد للأَموال غير مسالمِ

فهَمُّ الفتى الأَزدىِّ إتلافُ مالِه ... وهَمُّ الفتى القيسىِّ جَمْعُ الدراهمِ

فلا يحسب التَّمْتامُ أنى هجوتُه ... ولكننى فضَّلتُ أهل المكارم

وقد تعلق بغير جارية ، مما جعله ينظم غزلا كثيراً ، ويقول ابن المعتز : أما شعره فى الغزل فإنه أشعر أهل زمانه جميعًا ، وما أجد أطبع ولا أصحَّ غزلا منه ، ويقول أيضًا : « كان ربيعة أشعر غزلا من أبى نواس لأن فى غزل أبى نواس بَرْدًا كثيرا وغزل هذا سليم سهل عذب » . وغزله يُسْلك فى الغزل الصريح إذ كان فيه لهو حتى لُقِّب بالغاوى ، وممن كان يهواهن جارية يقال لها « عَشْمة » كانت أمةً لرجل من أهل قرقيسياء ، وقعت فى قلبه ، فظل يتغنى بها على شاكلة قوله :

أَعَثْمَةُ أَطْلِقِي العَلَقَ الرَّهينا بعيشِك وارْحَمِي الصَّبَّ الحزينا[1]
تعلَّق زائرًا لكِ فارْحميهِ فقد أورثتِ زائرَكِ الجُنونا
ولما أن رآك الناسُ قالوا تعالى الله ربُّ العالمينا
فقد أعطاكِ ربُّك فاشْكُريه جمالاً فوق وَصْفِ الواصفينا
إذا أقبلْتِ رُعْتِ الناس حُسْنا وإن أدبرتِ قَيَّدْتِ العُيونا

وله فيها أشعار كثيرة ، ويظهر أنها أول جارية شُغف بها ، وقد شُغف من بعدها بجارية من جوارى الكَرْخ ببغداد تسمَّى « رُخاص » كما شُغف بأخرى تسمَّى داحا ، وفيها يقول :

صَاحِ إنى غيرُ صَاحى أبداً من حُبِّ داحِ
أنا واللهِ قتيلٌ لكِ من غير جِراحِ
لا بسيفٍ قَتَلتنى لا ، ولا سُمْرِ الرِّماحِ
أنتِ للناسِ قتولٌ بالهوى لا بالسِّلاح
وبشكلٍ وبِدَلٍّ وبحُسْنٍ ومُزَاحِ
وبعينين صَيُودَيْنِ وثَغْرٍ كالأقاحِي
ليتنى كنتُ حَماماً لكِ مقصوصَ الجناحِ

وله فى جارية تسمى « سعاد » أشعار كثيرة أيضاً يصور فيها حبه وهيامه وما كانت تراسله به من رسائل ، وفى إحدى قصائده فيها يقول :

الحبُّ داءٌ عَيَاءٌ لا دواء لَهُ إلا نَسِيمُ حبيبٍ طَيِّبِ النَّسَمِ
أو قبلةٌ من فَمٍ نِيلَتْ مُخالَسَةً وما حرامٌ فَمٌ ألصقته بفَمِ

ويظهر أن غزله كان يذيع فى عصره وينتشر على كل لسان ، حتى ليقال إن جوارى المهدى هن اللائى دفعنه ليحضره من الرقة حتى يستمعن منه إلى شعره . ويتصل بهذا الانتشار ما يُرْوَى من أن صانعى البُسط كانوا يكتبون أشعاره

---

(١) يريد بالعلق المعلق بالحب .

عليها ، فقد حدث بعض العباسيين أنه رأى فى دَوْر بساط قديم من بسط دار الخلافة هذه الأبيات :

وتزعم أنى قد تبدَّلتُ خُلَّةً سواها وهذا الباطل المتقوَّلُ
لحا اللهُ من باع الصديقَ بغيرهِ فقالت نعم حاشاك إن كنت تفعلُ
ستَصْرِمُ إنساناً إذا ما صَرَمْتَنِى يحبك فانظرْ بعده من تبدَّلُ

وشعر ربيعة كله على هذا النحو المصقول ، الذى يروع بسلاسته وجمال ديباجته ونصاعة ألفاظه ، مع الطبع المتدفق والمعانى اللطيفة . ويقال إنه توفى سنة ١٩٨ للهجرة .

٢

شعراء المجون والزندقة

كثر شعراء المجون وما يرتبط به من وصف الخمر فى هذا العصر كثرة مفرطة ، وقد عملت على ذلك أسباب مختلفة ، فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس ، وكان كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد ، وساعد على اضطراب النفوس وتسلط الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية وشيوع المذاهب الفلسفية مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامية ، بل لقد كان من بينهم من يريد تحطيمها تحطيما . وسبب ثان يرجع إلى كثرة الرقيق ودور النخاسة التى كأنما كانت أسواقا للعبث . وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور ، حتى ليمتد إلى الغزل بالغلمان غزلاً يصور — عند أبى نواس وأضرابه — انحطاطاً خلقياً شنيعاً . وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجوارى والإماء ، مما أدَّى إلى انحلال الروابط الاجتماعية لتسلطهن على الحياة المنزلية ، إذ أخذن مكان المرأة العربية الحرة ، وكن مختلفات الأجناس ، وكثيرات منهن كُنَّ قد نُشِّئْن على اللهو والمجون والابتذال والخلاعة تنشئة لم تكن تعرفها المرأة العربية المحصَنة .

وطبيعى لذلك كله أن تنتشر موجة حادة من المجون ، ومن غير شك تعد الدولة

مسئولة منذ المهدى عن انتشار هذه الموجة، ومعروف أنه اتخذ ديوانًا للزنادقة وكان حريًّا به أن يتخذ ديوانًا آخر للمجون، ولكنه لم يصنع . وأخذت الموجة تبلغ حدتها العنيفة منذ عصر الرشيد ولكنه لم يحرك ساكنًا لا هو ولا من تلاه من الخلفاء ، بل لقد أسهم فيها ابنه الأمين إسهامًا واسعاً ، حتى غدا القصر كأنه حانة ، إن صح ما يرويه الرواة . ونفس الفقهاء والمتكلمين مسئولون إلى أبعد حد عن شيوع هذا الفسق والفساد وقد مضوا يُشْغَلون عن المجتمع بمباحثهم الخاصة مهملين ما يدعو إليه الدين من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ومضى الشعراء من حولهم فى الكوفة والبصرة وبغداد يمعنون فى المجون والفجور ، وحقًّا صرخ شيوخ البصرة من أمثال واصل ومالك بن دينار فى وجه بشار وغزله المادى الصريح الذى يفسد به نساء البصرة وشبانها ، وارتفع صياحهم إلى سمع المهدى ، فنهاه عن هذا الغزل ، وانتهى على كره ومضض ، غير أن شيوخ الكوفة وبغداد لم يرتفع لهما صوت. ونفس شيوخ البصرة بعد عصر بشار لزموا الصمت الطويل ، مع اشتداد الفسق والغزل المفحش بالإماء والغلمان ، فقد كان لا يعرف الغزل الأخير ، وكان لا يبلغ من الإفحاش فى غزل الإماء ما بلغه الجيل التالى له .

والذى لا شك فيه أن الكوفة سبقت البصرة وبغداد جميعًا لهذا العصر فى الفسق والمجون ، إذ غرقت فيهما إلى أذنيها ، وكان مما أعدّ لذلك دار نِخاسة كبيرة قامت بها منذ أواخر عصر بنى أمية ، وهى دار ابن رامين ، وكان قد جلب إليها كثيرات من قيان الحجاز وإمائه المغنيات أمثال سَعْدة ورُبَيْحة وسلاّمة الزرقاء ، وتولع بهن كثير من شباب الكوفة وغيرهم أمثال إسماعيل بن عمار ومحمد بن الأشعث وشُراعة بن الزَّنْدَبُوذ ، ونظموا فيهن كثيراً من الأشعار المادية التى لا تخلو أحيانا من الفحش[1] . ولم تلبث أن ظهرت جماعة كبيرة من المجان الخلعاء أمثال والبة ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد .

وكان والبة شيطاناً مَريدا، فهو يسرف فى المجون والخلاعة والغزل الشاذ بالغلمان وكان ينتسب فى قبيلة أسد [2] ، وهى والعرب جميعًا بُرَآءُ منه ومن فحشه

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣٦٤/١١ وما بعدها و٥٦/١٥ وما بعدها .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٤٢/١٦ وانظر فى والبة ابن المعتز ص ٨٧ وتاريخ بغداد ٥١٨/١٣ .

وشذوذه ، وقد أعفاهم منه أبو العتاهية ، إذ نسبه فى الروم[1] ، وهو الذى أدّب أبا نواس وأفسده فيما يقول الرواة ، ويقول أبو الفرج إنه كان خبيث الدين . وقد ذهب شعره إلا أطرافًا رواها أبو الفرج وابن المعتز ، وهى تصور كيف كان يجاهر بالفسق والمعصية . وممن خلفوا أبانًا وجماعته على هذه المجاهرة بكر بن خارجة مولى بنى أسد ، وكان ورّاقا ضيق العيش مقتصراً على التكسب من الوراقة وصرف أكثر ما يكسبه إلى النبيذ، وكان معاقراً للشراب فى منازل الخمارين وحاناتهم وتعشق غلاما نصرانيًّا يقال له عيسى بن البراء العِبادى الصيرفى ، وله فيه قصيدة مزدوجة ذكر فيها النصارى وشرائعهم وأعيادهم وأديرتهم ، وفيه يقول[2] :

زُنَّارُهُ فى خَصْرِه معقودُ كأنَّه من كبِدى مقدودُ

ولم يلبث كثير من شعراء البصرة أن أمعنوا وراء شعراء الكوفة فى هذا الفساد الخلقى ، يقودهم الخارَكِىُّ ، وفيه يقول أبو نواس : « ما مجنتُ ولا خلعت العِذار حتى عاشرت الخاركى فجاهر بذلك ولم يحتشم فامتثلنا نحن ما أتى به وسلكنا مسلكه ، ونحن ومن يذهب مذهبنا عيالٌ عليه»[3] . وكان طبيعيًّا أن ينقل شعراء البصرة والكوفة هذا الفساد والتحلل الخلقى إلى بغداد منذ أخذوا يفدون عليها ويقيمون بها فى عهد المهدى ومن تلاه من الخلفاء ، يتقدمهم أبو نواس . ومن مجّانها المشهورين الرّقاشى ، يقول أبو الفرج : « كان ماجناً متهاوناً بمروءته ودينه ، وقصيدته التى يوصى فيها بالخلاعة والمجون مشهورة سائرة فى الناس ، مبتذَلة فى أيدى الخاصة والعامة وهى التى أولها :

أَوصَى الرقاشىُّ إلى إخوانِه وصيَّــةَ المحمودِ فى نُدْمانِه »[4]

ويقول ابن المعتز إنها كانت فى الغلمان وشرب الخمر والقمار والهِراش بين الديكة والكلاب[5] . وقد اتسعوا فى الحديث عن الخمر ورائحتها ونَفْحتها ودنانها وسقاتها وحاناتها وأديرتها ، وتعرضوا طويلا للرهبان والراهبات وزنانيرهم .

ونرى أبا الفرج حينما يتحدث عن كثير من هؤلاء الخلعاء الماجنين ينصُّ على

---

(١) أغانى ١٦/١٤٣ وما بعدها .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٨٧ .
(٣) ابن المعتز ص ٣٠٦ .
(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/٢٤٦ .
(٥) ابن المعتز ص ٢٢٦ .

خبث دينهم أو على زندقتهم ومروقهم من الإسلام وشريعته الفرّاء على نحو مانرى فى حديثه عن حماد الراوية وحماد عَجْرد ومطيع بن إياس ، وكأنهم كانوا على مذهب مزدك الذى يدعو إلى اللذات واقتراف الكبائر . وكان من الزنادقة نفر أشْرِبوا حبَّ مذهب مانى وما فيه من الزهد والانصراف عن مُتَع الحياة وخير من يمثلهم صالح بن عبد القدوس الأزدى .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن كثيرين ممن تورطوا حينئذ فى الخمر والمجون لأوائل حياتهم ، عادوا فتابوا إلى ربهم وأنابوا ، ومن خير من يمثل هذا الفريق آدم ابن عبد العزيز حفيد عمر بن عبد العزيز ، يقول أبو الفرج : « كان فى أول أمره خليعًا ماجنًا منهمكا فى الشراب ، ثم نَسك بعد ماعُمِّر ومات على طريقة محمودة » ويروى أن المهدى شك فى أنه زنديق ، فأمر بضربه ثلاثمائة سَوْط على أن يقرَّ بالزندقة ، فقال : والله ما أشركت بالله طَرْفة عين ، فقال له المهدى : فأين قولك :

اسْقِنى واسْقِ خليلى فى مَدى الليل الطويلِ
قهوةً فى ظـــل كَرْمٍ سُبِيَتْ من نهر بِيل[1]
فى لسان المرء منهـــا مثلُ طعم الزَّنْجَبيل
قُلْ لمن يلحاك فيها من فقيهٍ أو نبيل[2]
أنت دَعْها وارْجُ أخرى من رَحيق السَّلْسبيل[3]
تعطش اليومَ وتُسْقَى فى غَدٍ نَعْتَ الطُّلولِ

فقال للمهدى : كنت فتى من فتيان قريش ، أشرب النبيذ ، وأقول ما قلتُ على سبيل المجون ، والله ما كفرت بالله قط ، ولا شككت فيه . فخلِّى سبيله ورقَّ له[4] . وأمثال آدم كانوا كثيرين . ونحن نقف عند ثلاثة من أبرز شعراء الزندقة والمجون وهم حماد عَجْرد ومطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس .

---

(١) بيل : من نهيرات سواد العراق. سبى الخمر : حملها من بلد إلى بلد .
(٢) يلحاك : يلومك ويشتمك .
(٣) يشير إلى رحيق الفردوس .
(٤) أغانى ١٥/٢٨٥ وما بعدها .

حماد [1] عجرد

من الموالى، أصله ومنشؤه بالكوفة، كان أبوه نَبَّالا يَبْرِى النَّبْل ، ويظهر أنه وجهه إلى الدرس والتعلم مبكراً ، ويقال إنه لُقب بعَجْرد لأن أعرابيًّا مرَّ به فى يوم شديد البرد وهو عُرْيان يلعب مع الصبيان ، فقال له : تعجردت يا غلام أى تعرَّيت فسمى عَجْرَدًا . وظل عاكفا على التعلم والتأدب ، حتى أتقن العربية وانتظم فى سلك المعلمين المؤدبين ، غير أنه مضى يفرغ للهو والمجون مع صاحبيه : حماد الراوية وحماد بن الزبرقان ، يقول ابن المعتز : « كان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون : حماد عجرد وحماد بن الزبرقان وحماد الراوية يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون أجمل عشرة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، وكانوا جميعاً يُرْمَوْن بالزندقة » . فهو لم يكن ماجنًا فحسب ، بل أشربتْ روحه الزندقة كما أشْرِبت المجون ، وقد مر بنا فى الفصل الرابع ما قاله أبو نواس من أنه كان يظن أن حمادا رُمى بالزندقة لعكوفه على المجون ، حتى إذا حُبِس فى سجن الزنادقة وجدهم يقرءون فى صلاتهم شعراً مزاوجا له ، فعرف أنه كان إمامًا من أئمتهم . وعلى نحو ما كان يتواصل مع حماد الراوية وحماد بن الزبرقان كان يتواصل مع مجان موطنه المتزندقة من أمثال مطيع بن إياس ويحيى ابن زياد . وهو يُسْلَك فى مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، ويظهر أن مجونه قديم إذ يقال إنه كان من ندماء الوليد بن يزيد وأنه ظل إلى أن قتل سنة ١٢٦ للهجرة فعاد إلى موطنه ، وأخذ يعيش معيشة مجون وفجر وفسق لا يرعوى ولا يزدجر ، بل يصرح بذلك تصريحًا عاريًا مكشوفا، كما يصرح بزندقته مجاهراً ، حتى ليقول فيه مساور الوراق :

لو أن مانى ودَيْصانا وعُصْبتهم ... جاءوا إليك لما قلناك زنديقُ

---

(١) انظر فى حماد وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/٣٢١ وابن المعتز ص ٦٧ – ٧٢ وابن قتيبة ص ٧٥٤ ومعجم الأدباء ١٠/٢٤٩ وابن خلكان وتاريخ بغداد ٨/١٤٨ والحيوان للجاحظ ٤/٤٤٧ وفى مواضع أخرى (انظر الفهرس) وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/١٢٨ – ١٣٤ . ولسان الميزان ٢/٣٤٩

أنت العبادةُ والتوحيدُ مذ خُلقا وذا التزندقُ نَيْرنجٌ مخاريقُ

فهويفوق — فى رأيه — مانى وديصان وأضرابهما من رءوس الزنادقة . ويعابثه صديقه حماد بن الزبرقان شاهدا عليه بزندقته ومجونه قائلا :

نِعم الفتى لو كان يعرف قَدْره ويقيم وقتَ صلاته حَمَّادُ
هَدَلَتْ مشافرَه الدِّنانُ فأنفُه مثل القَــدوم يسنُّها الحَدَّادُ
وابيضَّ من شرب المُدامة وجهه فبيــاضُه يوم الحساب سوادُ

وكأنما كان عُرْيه فى صباه ولقبه عجرد الذى لزمه إرهاصاً لما أخذ فيه بعدُ من الإباحة وطلب اللذات . وكان يطلبها فى الحانات وفى الأديرة وفى البساتين ، متغزلا فى الإماء والغلمان غزلا مكشوفاً كان يتبادله مع مطيع بن إياس وغيره ممن كانوا يمعنون معه فى المجون هازئين بالإسلام ودعوته التى تحرم الإباحة واقتراف المنكرات ، حتى لينحازوا إلى الزندقة التى تفتح لهم الأبواب إلى الفسوق والفجر الفاجر .

ويرتفع ما كان فيه من فسق ومجون إلى سمع المنصور ، فيستخدمه أداة للنَّيْل من محمد بن أخيه السفاح ، حتى يسقط فى أعين الرعية ويرتفع عندها ابنه المهدى ، ذلك أنه كان قد اتصل به من قبلُ وأدَّبه ، وترك فيه أثراً سيئاً ، إذ جعله يميل إلى اللهو وشىء من المجون . ورأى المنصور أن يهتك ستر ابن أخيه فولاه البصرة بعد ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وأصحبه حماداً ، فأكمل إغواءه له ، وكشف للناس مجونه ، وله فيه مدائح مختلفة من مثل قوله :

أرجوك بعد أبى العباس إذ بانا يا أكرمَ الناسِ أعْراقا وأغصانا
لو مَجَّ عودٌ على قومٍ عصارتَه لمجَّ عودك فينا المِسْكَ والبَانا

وحدث أن خطب محمد حين ولى البصرة ابنة عم أبيه زينب بنت سليمان العباسى وكان يهواها ، فلم يزوجوها له لنقص كانوا يرونه فى عقله ، ورأى أن يؤذيهم فطلب إلى حماد أن ينظم فيها غزلا على لسانه ، فنظم وأكثر مما أحفظ عليه أخاها محمد ابن سليمان وأهلها ، ولم يلبث محمد أن توفى لأوائل سنة مائة وخمسين للهجرة ،

فبكاه حماد بكاء حارًّا بمثل قوله :

صرتُ للدهر خاشعاً مستكينا بعد ما كنت قد قهرتُ الدهورا
ليتنى متُّ حين موتك ، لا بل ليتنى كنت قبلك المقبورا

ولم يجرّ عليه نزوله البصرة غضب محمد بن سليمان فحسب ، بل لقد جرَّ عليه أيضًا معركة هجاء حامية الوطيس نشبت بينه وبين بشار شاعر البصرة ، ذلك أنه أفسد عليه بعض من كانوا يثيبونه ، فهجاه والتحم بينهما الهجاء ، وشُغف بعض معاصريهما بالتحريش بينهما ، فكان ينقل إلى كل منهما ما يقوله فى صاحبه ، فيثورويحاول أن يقذفه بحجر مُدْم ، وتكاثرت الأحجار . وكان بشار — مع زندقته — يكثر من هجائه بالزندقة ، وردَّ عليه بنفس السهام وبسهام أخرى لم تكن أقل إيذاء ، إذ كان يهجوه بعماه وقبح خلقته ودَنسه وقذارته مهوِّنًا منه أشد التهوين ومستخفًّا به أشد الاستخفاف ، وقد أنشدنا فى الفصل الرابع أطرافا من هذا الهجاء المُصْمى ، وأكثرا جميعًا من هجو الأمهات والزوجات . ومن المحقق أن حماداً كان يستعلى عليه فى تلك المعركة ، إذ كان يُشيع فى هجائه له سخرية مرة من مثل قوله :

إن تاه بشارٌ عليكم فقد أمكنتُ بشارا من التيهِ
وذاك إذ سمَّيتُه باسمهِ ولم يكن حُرٌّ يسمِّيه
لم أَهْجُ بشاراً ولكننى هجوتُ نفسى بهجائِيهِ

ونراه فى بعض عبثه ولهوه مع مطيع بن إياس يلمزه بعض اللمز ، ولكنهما لا يندفعان فى الهجاء ، فقد كانا صديقين متوادَّين . واتصلت صداقته مع يحيى ابن زياد ، وكان مثله خليعًا ماجنا متّهما بالزندقة ، ويقال إنه تاب وأناب بأخرة وهجا حماداً وأشباهه وإنه كان إذا ذُكر عنده ثلبه وحكى تهتكه ومجونه ، فكتب إليه حماد من قصيدة :

إن كان نُسْكك لا يتـ ـمُّ بغير شَتْمى وانتقاصى
فعليك فاشتُمْ آمنـاً كلَّ الأمان من القِصاصِ

فلطالمـــا زكّيتنى وأنا المقيمُ على المعـــاصى
أيام أنت إذا ذُكر تُ مناضلٌ عنى مُناصى[1]
وأنا وأنت على ارتكا ب الموبقات من الحِراصِ

وله معاتبات بديعة كثيرة لأصدقائه يتحدث فيها عن واجب الصديق للصديق حديثًا كله برٌّ وعطف ، على شاكلة قوله :

لقد حُزْتَ من قلبى مكانا ممنَّعا أرى لك فيه أن أُريق لك الدَّما
سأشرب كأسيك اللتين سقيتنى وإن كانتا واللهِ صَاباً وعَلْقَما
وأُدْخل كفِّ إثْر كفِّكَ فى الذى عراك ولو أدخلتَها ثُقْبَ أرقما[2]

وبلغه توعد محمد بن سليمان العباسى بعد وفاة محمد بن السفاح لما كان يردّده من الغزل بلسان ابن عمه فى أخته على نحو ما أسلفنا فمدحه أمداحا مختلفة غير أن محمد بن سليمان ظل حنقا عليه وجدّ فى طلبه ، فمضى إلى قبر أبيه سليمان بن على فاستجار به ، وبلغ ذلك محمداً فقال : والله لأبُلَّنَّ قبر أبى من دمه ، فهرب حماد إلى بغداد فعاذ بجعفر بن المنصور ، فأجاره ، ويقال إنه طلب إليه هجاء محمد بن سليمان وكان والياً على البصرة فلبّاه وهجاه هجاء مقذعا بمثل قوله :

له حَزْمُ بُرْغُوث وعقل مكاتَبٍ وغُلْمَةُ سِنَّوْرٍ بليلٍ تُوَلْوِلُ[3]

وبلغ هجاؤه ابن سليمان فأهدر دمه ، ويقال بل قتله لزندقته ، وقال : والله لا يفلتنى أبداً ، وعرف أنه استتر منه بالأهواز ، فأرسل إليه بعض مواليه وأمره أن يفتك به ، فلم يزل يطلبه حتى وقف عليه فقتله غيلة سنة ١٦١ للهجرة .

مطيع[4] بن إياس

كان أبوه إياس بن مسلم شاعراً ، وكان من أهل فلسطين الذين أمدّ بهم

---

(١) مناصى : مدافع .
(٢) الأرقم : الثعبان .
(٣) تولول : تعول .
(٤) انظر فى مطيع وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٩٤ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/٢٧٤ وتاريخ بغداد ١٣/٢٢٦ وعيون الاخبار ٢/١٨٢ وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/١٤٢ والديارات للشابشتى ص ١٥٩ وما بعدها ولسان الميزان لابن حجر ٦/٥١ .

عبد الملك بن مروان الحجاجَ بن يوسف فى حروبه ضد الثوار ، وقد أقام بالكوفة وتزوَّج بها فوُلد له مطيع ، وبها كان منشؤه ومرباه . وقد نسبه أبو الفرج إلى كنانة ، ثم عاد فتشكك فى هذا النسب مُحسًّا أنه من صنع الرواة . وكل شىء فيه يؤكد أنه لم يكن عربيًّا إنما كان من الموالى ، فقد كان متحلل الأخلاق مجاهراً بالفسق والعصيان والزندقة والإلحاد ، ومضى فى مطالع شبابه يمدح الغمر بن يزيد بن عبد الملك ويظفر بجوائزه السنية ، ووصله بأخيه الوليد ، فسلكه فى ندمائه .

وعاد مع حماد عجرد بعد وفاة الوليد بن يزيد إلى الكوفة ، وغرقا فى اللهو والمجون والفسق والعصيان مع يحيى بن زياد وغيره من الخلعاء والمجان . واتصل بعبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ونادمه ، ورافقه فى ثورته على الأمويين حتى إذا قُتل عاد إلى الكوفة يحتسى كئوس الخمر حتى الثمالة .

وليست هناك سوءة من سوءات العصر إلا وتُضاف إليه . وكان فيه ظرف ودعابة ، مما جعله محبَّبا إلى رفاقه ، وله معهم نوادر كثيرة ، من ذلك أن صديقه يحيى بن زياد قال له يوما : انطلقْ بنا إلى فلانة المغنية صديقتى فإن بينى وبينها مغاضبة ، لعلك تصلح بيننا فدخلا إليها ، وأقبل يحيى يعاتبها ومطيع ساكت ، حتى إذا أكثر يحيى قال لمطيع : ما يسكتك ؟ فتوجه إليها مطيع قائلا :

أنت معْتَلَّةٌ عليه ومـــازا ل مُهينا لنفسه فى رضاكِ

فأعجب يحيى ما سمع ، وهَشَّ له مطيع ، ثم قال :

فدَعيه وواصلى ابنَ إياسٍ جُعِلَتْ نفسىَ الغداةَ فِداكِ

وأغربت الجارية فى الضحك . وفى كتاب الأغانى أشعار له كثيرة كان يدعو بها رفاقه إلى اللهو والقصف فى داره وفى البساتين والأديار . وغزله فى الغلمان قليل ، ولكن لا شك فى أنه من أوائل من أشاعوا هذا الغزل المزرى ، وله غزل كثير فى القيان الكوفيات وخاصة فى جوهر ، وفيها يقول :

أنتِ يا جوهرُ عندى جَوْهره فى قياس الدُّرِ المشتهره
أو كشمسٍ أشرقتْ فى بيتها قَذفتْ فى كل قلبٍ شَرَرَه

وفى أخباره أنه صحب سلم بن قتيبة حين ولى مدينة الرَّىّ للمنصور سنة ١٤٥ وهناك عشق امرأة من بنات الدهاقين كان نازلا بجوار دارها، ولم يلبث المنصور أن استدعى سلما فى نفس السنة ، فاضطُرَّ مطيع إلى الرحيل معه، وألمَّ فى طريقه بمدينة حلوان وجلس يستريح بجوار نخلتين وتذكر معشوقته، فخنقته العبرات وقال أبياته المشهورة التى أنشدناها فى الفصل الرابع والتى يخاطب فيها نخلتى حلوان خطابا مؤثراً شاكيًا لهما فراقَه الأحباء والخلان .

ومن الأجواد الذين فزع إليهم فى تلك الفترة يستميحهم بمدائحه معن بن زائدة الشيبانى ، ويُرْوى أنه لما أنشده مدحته التى يقول فيها مصوراً كرمه وبأسه وحلمه وحصافته :

فتى نزارٍ وكهلُها وأخو الـ ـجود حَوَى غايتيه من كَثَبِ
تَرَى له الحلْم والنُّهَى خُلقا فى صولةٍ مثل جاحم اللَّهَبِ

قال له معن مداعبا : إن شئت مدحناك كما مدحتنا ، وإن شئت أثبناك ، فاستحيى مطيع من إيثار الثواب على المديح ، وهو محتاج إلى الثواب ، فأنشأ يقول بديهـــة :

ثنـــاءٌ من أميرٍ خَيْرُ كَسْبٍ لِصاحبِ فاقةٍ وأخى ثراء
ولكن الزمان بَرَى عِظامى وما مثلُ الدراهم من دواء

فقال معن : لقد لطفت حتى تخلصت ، وصدقت لعمرى ما مثل الدراهم من دواء ، وأمر له بثلاثين ألف درهم وخلعة سنية.

وجذبته بغداد على نحو ما جذبت غيره من الشعراء ، فولّى وجهه نحوها ، وربما كان من أسباب ذلك خروج رفيقيه حماد عجرد ويحيى بن زياد إلى محمد ابن العباس السفاح بالبصرة . ويظهر أن الدواء الذى وصفه له معن بن زائدة عزَّ عليه فى أول مقامه ببغداد ، مما جعله يقول :

زاد هذا الزمانُ عسرًا وشرًّا عندنا إذ أحلَّنا بغداذا
بلدةٌ تمطر الترابَ على النا س كما تمطر السماءُ الرَّذاذا

ولم يلبث ظرفه أن فتح له أبواب القصر العباسى ، فتحها له جعفر بن المنصور. وكان فيه خبث ، فانتهز فرصة إعلان المنصور بيعته لابنه المهدى بولاية العهد من بعده ، وتقدم عقب فراغ الخطباء والشعراء من إشادتهم بالمهدى ، فروى حديثاً مصنوعاً لتوهّ زاعماً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « المهدى منا محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا ، يملؤها عدلا كما مُلئت جوراً» . وسُرَّ من صنيعه المنصور ، وحفظ ذلك له المهدى . ويقال إنه ارتفع إلى المنصور أنه ماجن زنديق فهمَّ بإنزال عقاب صارم به غير أن ابنه المهدى تشفع فيه فعفا عنه، وبذل له المهدى مائتى دينار ، وأوصى به والى البصرة فولاه أعمال الصدقات . وربما كانت هذه الولاية غير صحيحة ، ولكن من المؤكد أن المهدى ظل راضياً عنه ، ولعل هذا الرضا هو الذى جعله يفلت من عقابه حين شدَّد فى تعقب الزنادقة سنة ١٦٦ للهجرة وأطاح برءوس كثيرين منهم . ومما يؤكد زندقته ما يقال من أن الرشيد أُتى ببنت له فى الزنادقة ، فأقرت بزندقتها وتوبتها قائلة : هذا دين علَّمنيه أبى وتبت منه . فقبل الرشيد توبتها وردَّها إلى أهلها .

ومضى مطيع يعيش لعهد المهدى منهمكاً فى المجون والخلاعة والشراب والانطراح فى مواضع اللذات ، ونظم فى تلك الحياة الفاجرة كثيراً من الأشعار يصف فيها الخمر أو يتغزل ببعض القيان . وله بجانب ذلك معاتبات لرفاقه تفيض حنانا وعطفا وبرًّا ، وخاصة مع صديقه يحيى بن زياد، ويقول ابن المعتز : « كان لا يفارقه ليلا ولا نهاراً ، ويرى كل واحد منهما بصاحبه الدنيا مودة ومحبة » . وحدث أن تهاجرا ولم يُطق مطيع الصبر على هجره فكتب إليه يعاتبه ويستعطفه مصوراً ما كان منعقداً بينهما من ود متصل بمثل قوله :

كنت ويحيى كيَدَىْ واحدٍ ... نَرْمى جميعاً وتَرَيْنَا معاً
إن عضَّنى الدهرُ فقد عضَّه ... يوجعنا ما بَعْضَنَا أوجعا
أو نام نامتْ أعينٌ أربعٌ ... منا وإن أَسْهَرْ فلن يَهْجَعا
حتى إذا ما الشيبُ فى مَفْرِقى ... لاح وفى عارضه أسرعا
سَعَى وُشاةٌ فمشوا بيننا ... فكاد حَبْل الوُدِّ أن يُقْطَعَا

حتى إذا استمكن من عَثْرةٍ ... أَوْقَدَ نيرانَ القِلَى مُسْرِعا
فلم أَلُمْ يحيي على فعلهِ ... ولم أَقل مَلَّ ولا ضيَّعا

وهو عتاب يدل على حس مرهف دقيق . وسرعان ما عاد بينهما الصفاء ومضيا يعبّان من دنان اللهو والمجون حتى كفَّ يحيي بأخرة فيما يقال . ولم يلبث أن توفى فبكاه مطيع بكاء حارًا ، ومن قوله يرثيه ويتفجع عليه :

يا أهلىَ ابْكُوا لقلبىَ القَرِحِ ... وللدُّموعِ السواكبِ السُّفُحِ (١)
راحوا بيحيي ولو تطاوعنى الْـ ... أَقْدَارُ لم يبتكر ولم يَرُحِ (٢)
ياخير مَنْ يحسن البكاء له الـ ... يوم ومن كان أمسِ للمِدَحِ
قد ظفِرَ الحُزْنُ بالسرور وقد ... أُديل مكروهنا من الفرحِ (٣)

وواضح أن مطيعا كان يتقن جميع الفنون الشعرية وأنه يمتاز فى أشعاره بالسلاسة والعذوبة . ولعل ذلك ما جعله يميل فى كثير من نظمه إلى وزن المجتث والأوزان المجزوءة . وكأنما كان يريد أن يوفر لأشعاره كل ما يمكن من خفة ورقة ورشاقة ، حتى تجرى على أفواه الناس ، وحتى تَلَذَّ آذانهم ، ويقول صاحب الأغانى إن حكما الوادى المغنى تغنَّى فى قطعة له ، فلم يبق سَقَّاء ولا طحَّان ولا مكار إلا غنَّى فيها . وقد ظل مطيع سادراً فى غيه ومجونه حتى توفى سنة ١٦٩ وقيل بل فى سنة ١٧٠ للهجرة لأول خلافة الرشيد .

صالح (٤) بن عبد القدوس

بصرى من موالى الأزد ، وأكبر الظن أنه فارسى الأصل ، وكان فى صدر

---

(١) السواكب السفح : المنهمرة .

(٢) يبتكر : من البكور . ويرح : من الرواح وهو وقت العشى .

(٣) أديل : أصبحت له دولة وصولة .

(٤) انظر فى صالح وأخباره وأشعاره أمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/١٤٤ وما بعدها وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٠ ورسالة الغفران (طبعة أمين هندية) ص ١٤٢ وتاريخ بغداد ٩/٣٠٣ ومعجم الأدباء لياقوت ١٢/٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٦/٣٧١ وفوات الوفيات ١/١٩١ ونكت الهميان للصفدى ص ١٧١،٧١ ولسان الميزان لابن حجر ٣/١٧٢ وفهارس كتابى البيان والتبيين والحيوان للجاحظ ، وسرح العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربى) ص ٢٢٧ .

نشأته يختلف إلى حلقات الوعاظ والمتكلمين ولم يلبث عقله أن تشوش بما كان يسمع فى تلك الحلقات من مناقشات أصحاب الملل والنحل، فإذا هو يعتنق الثنوية المانوية مذهب آبائه ونحلتهم ، وما كانت تقول به من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة ، ولكل منهما إلهه الخاص ، وأن مصدر بلاء العالم امتزاج هذين العنصرين ، ومن أجل ذلك دعت إلى الزهد فى الحياة ونعيمها الزائل . ونراه فى عصر بنى أمية يكثر من الاجتماع بواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، مشاركا فيما كان يدور فى مجلسه من مخاصمات كلاميَّة ودينية[1] ، ونظن ظنًّا أنه لم يظهر حقيقة عقيدته حينئذ ، وإلا لهتف به واصل ، كما هتف ببشار طالبًا من أصحابه قتله[2] ، وفى بعض شعره أنه كان يستّر نحلته خشية الحبس والعقاب والتنكيل به ، يقول :

رُبَّ سِرٍّ كتمتُه فكأنّى أَخْرَسٌ أو ثنى لسانىَ خَبْلُ

ولو أنى أبديت للناس علمى لم يكن لى فى غير حَبْسِىَ أَكْلُ

وتوفىَّ واصل سنة ١٣١ للهجرة ، ولم تلبث الثورة العباسية أن اندلعت تسندها حراب الفرس والخراسانيين وسرعان ما انتصرت فأحسَّ صالح كأن الحياة واتته ، وأخذ يعلن عقيدته ويجاهر بها حينًا ، وحينا يستّرها حين يخاف بعض الحكام ، حتى ليصلى صلاة المسلمين حين تحين الصلاة ، ويعجب من صلاته بعض من يعرف مذهبه ، ويسأله فى ذلك متعجبًا ، فيقول : « سنة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد » . ونمضى فى العصر العباسى ويكثر الزنادقة والمتزندقون ، على نحو ما صورنا ذلك فى غير هذا الموضع ، ويعلن صالح زندقته ولا يواريها ، أو بعبارة أدق يعلن مانويته وثنويته ، حتى ليؤلف — كما يقول ابن النديم — كتبًا فى نصرة عقيدته[3] . وتبلغ به الجرأة أن يحاضر ويجادل فيها بمسجد البصرة ، ويتعرض له غير متكلم من المعتزلة وغيرهم وخاصة أبا هذيل العلاف ، ويروى أنه ناظره فى الامتزاج الذى يدعيه المانوية بين النور والظلمة فى الجوهر والطبع والفعل والمكان والأبدان والأرواح ، وأنه أفحمه وقطعه ، فقال :

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/١٤٦ . (٣) الفهرست ص ٤٧٣ .

(٢) انظر البيان والتبيين ١/١٦ .

أَبا الهُذَيْلِ هداك الله يا رجلُ　　فأَنت حقًّا لعمرى مُعْضِلٌ جَدِلُ

وناظره أبو الهذيل مرة أخرى فى أصل عقيدته وما يؤمن به من إلهى النور والظلمة ، وبدا منه كأنه يهجر ضلاله وغيه ، فسأله أبو الهذيل : على أى شىء تعزم يا صالح ؟ فقال : أستخير الله وأقول بالاثنين . وكأن المسألة تحوَّلت عنده من الأخذ بالمنطق إلى باب الهوى وتقليد الآباء ، ويظهر أن ذلك أفضى عنده إلى شكوك واسعة لا فى الديانات فحسب ، بل فى حقيقة كل شىء ، ولعله اطلع على مباحث السوفسطائيين اليونانيين وما آمنوا به من أن الأشياء لا حقيقة لها فى نفسها ، ويدل على ذلك ما يقال من أنه ألف كتابا سماه كتاب الشكوك ، ويُرْوَى إنه مات له ولد ، فلقيه أبو الهذيل العلاف ومعه النظام ، فوجده جزِعًا على ابنه ، فقال له : لا أعرف لجزعك وجهًا إذا كان الناس عندك كالزرع ! فقال صالح : يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، منْ قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان ؛ فقال له النظام : فشُكَّ أنت فى موت ابنك واعمل على أنه لم يمت وإن مات ، وشُكَّ أيضًا فى أنه قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه ، فتحصرِ صالح . وفى أشعاره ما يدل على أنه عَمِيَ فى آخر عمره ، إذ يقول :

عــزاءَكِ أَيهــا العَيْنُ السَّكوبُ　　ودَمْعَكِ إنها نُوَبٌ تنوبُ

على الدُّنيــا السلامُ فما لشيخٍ　　ضرير العين فى الدُّنْيا نصيبُ

إذا ما مات بَعْضُكَ فابْكِ بَعْضاً　　فإن البعض من بعضٍ قريبُ

وتدخل سنة ١٦٦ للهجرة ويشدد المهدى فى تعقب الزنادقة وينصب لهم ديوانا لمحاكمتهم ومن تثبت عليه الزندقة يُصلب لتوه ، حينئذ يفرُّ صالح من البصرة إلى دمشق ويظل مستتراً بها مدة ، ثم يقبض عليه ويلقى به فى غياهب السجون ببغداد انتظاراً لمحاكمته ، ويصور مشاعره وهو فى السجن تصويراً دقيقًا بمثل قوله :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها　　فلسنا من الأَحياء فيها ولا الموتى

طَوى دوننا الأَخبارَ سِجْنٌ ممنَّعٌ　　له حارسٌ تَهْدا العيون ولا يَهْدَا

قُبرْنا ولم نُدْفَنْ فنحن بمعزلٍ من الناس لا نُخْشَى فنُغْشَى ولانَغْشَى
ألا أحدٌ يـأْوى لأهل مَحِلَّةٍ مقيمين فى الدنيا وقد فارقوا الدنيا
كأنهمُ لم يعرفوا غير دارهمْ ولم يعرفوا غير التضايق والبَلْوى

ويختلف الرواة فى زمن هذه المحاكمة والخليفة الذى تولاها ، فمن قائل إنه المهدى ومن قائل إنه هرون الرشيد ، وقد ضعَّف ابن المعتز القول الأول ، وقال الصحيح أن الذى حاكمه وناظره فى زندقته الرشيد ، وكان قد أُنْهِيَ إليه أبيات يهجو بها الرسول — كبرت كلمة تخرج من فمه — لزواجه من زينب بنت جحش بعد فراق مولاه زيد لها[1] ، وهى طعن صريح فى الرسول الكريم والذكر الحكيم ، ولا بد أنه أنهى إليه كل شىء عن زندقته وإثنينيته ومانويته ، فأمر بالقبض عليه ، وزُج به فى السجن ، ثم عُقد له يوم لمحاكمته ، وتولَّى الرشيد المحاكمة بنفسه ، غير أنه حاول التبرؤ من كل ما نُسب إليه ، ويقال إنه ظل يستعطف الرشيد طويلا حتى رقَّ له ، ولكنه لم يلبث أن استنشده سينيته التى يقول فيها :

لا يبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغ الجاهلُ من نفسهِ
والشيخُ لا يترك أخلاقه حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسِهِ[2]
إذا ارعوى عاد إلى جهلهِ كذى الضَّنَا عاد إلى نُكْسه[3]
وإن من أدَّبْته فى الصِّبا كالعود يُسْقَى الماءَ فى غَرْسِهِ
حتى تراه مورِقاً ناضرا من بعد ما أبصرتَ من يُبْسِهِ

فتلا عليه الرشيد البيت الثانى ، وقال له : نحن نتمثل وصيتك وما شهدت به على نفسك من أنك لا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبداً ، وأمر فضُربتْ عنقه وصُلب على الجسر ببغداد عقابًا له وتنكيلا .

وكثير من أشعاره يدور على التنفير من الدنيا ومتاعها الزائل وذكر الموت والفناء ، والحث على مكارم الأخلاق وطاعة الله ، ولعله يريد إله النور والخير ، وقد جعل

---

(١) ابن المعتز ص ٩٠ .
(٢) الرمس : القبر .
(٣) الضنا هنا : المرض ، والنكس : الانتكاس أى رجوع الناقه إلى مرضه .

شيوعُ ذلك فى أشعاره ابنَ المعتز يشك فيما نسب إليه من الزندقة مستشهداً بقولـــه :

وليس بعجزِ المرء إخطاؤه الغِنى ولا باحتيالٍ أدرك المالَ كاسبُهْ
ولكنه قبْضُ الإلٰه وبَسْطه فلا ذا يجاريه ولا ذا يغالبـــه

يقول ابن المعتز : « فيا عجبا كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ؟ وكيف يكون قائله زنديقـًا ؟. وكأنما أحس أنه يصدر فى البيت الثانى عما جاء فى الذكر الحكيم مراراً من أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أى يضيقه ويجعله بقدر قليل . ونراه يتمثل فى شعره أحيانا بعض الأحاديث كقوله :

ولله فى عَرْض السموات جَنَّةٌ ولكنهـــا محفوفةٌ بالمكارهِ

والشطر الأول واضح الصلة بقوله تبارك وتعالى : (جنة عرضها السموات والأرض) أما الشطر الثانى فواضح الصلة بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكارة وحُفَّت النار بالشهوات ». واستمداد ابن عبد القدوس أحيانًا من الحديث النبوى أو من القرآن أو من بعض وعاظ المسلمين مثل الحسن البصرى لا يخرجه من دائرة الزنادقة المانويين ، فقد كان يصنع صنيعه أبو العتاهية كما مر بنا فى ترجمته ، وزندقته عند ابن المعتز لا يشوبها ريب . أما دعوة ابن عبد القدوس إلى الزهد فى الدنيا الفانية فهى دعوة كان يلتقى فيها المانوية بزهد الإسلام على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عنهم وعن أبى العتاهية فى غير هذا الموضع ، مما جعل بعض القدماء يتشككون فى زندقة أبى العتاهية على نحو ما يتشكك ابن المعتز الآن فى زندقة ابن عبد القدوس . ومما لا شك فيه أنه كان زنديقا مانويًّا كبيراً ، بل لقد كان رأس المانوية والمجادل عن عقيدتهم فى البصرة حقباً متطاولة .

ويكاد يذهب شعر ابن عبد القدوس كله فى تقرير محاسن الأخلاق والشيم ، ناظراً فيها نظرة تجريدية ، وهى نظرة دفعته إلى تعقب حكمة العرب والعجم ، حتى قالوا إن فى ديوانه ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم[1] ، وكأنه رصد نفسه لنظم الشعر فى الفضائل وتجارب الأفراد والأمم ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده

(١) التحفة البهية ص ٢١٧ .

قصيدته الزينبية التى تغزل فى مطلعها فيمن تسمى زينب ، ثم استرسل يسوق الحكم من مثل قوله :

احذَرْ مصاحبةَ اللئيم فإنه ... يُعْدِى كما يعدى الصحيحَ الأجربُ
يلقاك يحلف أنه بك واثقٌ ... وإذا تَوارى عنك فهْو العَقْرَبُ
يعطيك من طَرَف اللسان حلاوةً ... ويَروغُ منك كما يروغُ الثَّعْلَبُ
واخْتَرْ قرينك واصطفيه تفاخراً ... إن القَرين إلى المقارن يُنْسَبُ
واحفظْ لسانك واحترسْ من لفظهِ ... فالمرء يسلم باللسان ويَعْطَبُ
والسِّرَّ فاكتُمْه ولا تنطقْ بهِ ... إن الزُّجاجة كَسْرُها لا يُشْعَبُ (١)

ومن نمط هذه القصيدة الحكمية قصيدة له قافية استوعب فيها كثيراً من النصائح الخلقية التهذيبية ، وفيها يقول :

المرءُ يجمع والزمانُ يفرِّقُ ... ويظل يَرْقَعُ والخطوبُ تمزِّقُ
ولأَنْ يعادِيَ عاقلا خيرٌ له ... من أن يكون له صديقٌ أحمق
فارْبَأْ بنفسكَ أن تصادق أحمقاً ... إن الصديق على الصديق مصدَّق
وزنِ الكلام إذا نطقتَ فإنما ... يُبْدِى عقولَ ذوى العقول المنطقُ

وعلى هذه الشاكلة تجرى أشعاره فى صورة تقريرية خالية من العاطفة وقلما شُفعت بخيال أو تصوير ، ولعل ذلك ما جعل شعره يسقط من أيدى الأجيال التالية ، إلا قليلا ، وتنبَّه لذلك الجاحظ ، فقال لو أن حكمه كانت مفرقة فى قصائد مختلفة لسارت فى الآفاق « ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تَسِرْ ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شىء إلى شىء لم يكن لذلك عنده موقع (٢) » . على أن كتب الأدب ظلت تحتفظ ببعض أبياته الحكمية وظلت تدور فيها من مثل قوله فى العزاء :

إن يكن ما به أصِبْتَ جَليلا ... فلفقدُ العزاء فيهِ أجَلُّ

---

(١) يشعب : يصلح .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٠٦ .

وقوله :

إذا لم تستطع شيئاً فَدَعْهُ وجاوِزْهُ إلى ما تستطيعُ

وقوله :

وتروض عِرْسَك بعد ما هَرِمَتْ ومن العَناء رياضةُ الهَرِم[1]

وواضح فيما أنشدناه من أشعاره أنه كان يعنى باللفظ الجزل الرصين والبناء القوى المحكم ، كما كان يعنى بالتدليل والتعليل ودقة القياس .

٣

شعراء الزهد

هذه الصفحة التى صورناها من شعر المجون والزندقة كانت تقابلها صفحة رائعة من شعر الزهد ، فقد كانت المساجد مكتظة بالوعاظ والنساك وأهل الحديث والفقه والورع ، ومن حولهم العامة ، وقد صدقت كثرتهم ربها مخافة وعيده ، مؤمنة بأن القيامة موعدها وموقفها مع ذى الجلال وأن العمر وإن طال قصير وأن الدنيا ينبغى أن تكون دار زادٍ لدار المعاد . وما ينى الوعاظ والنساك من المحدثين يزجرونهم عن التعلق بمتاعها الزائل واضعين نصب أعينهم الموت وتبعات الحياة الموبقة وأن العاقل من عرف أن الناس سَفْرٌ وعما قليل راحلون فإما عذاب مستديم وإما نعيم مقيم ، فأسرع يغتنم بقية أجله بخير عمله مقدما كل ما يستطيع من الباقيات الصالحات .

ويبدو أن كثيرين من القصاص والوعاظ كانوا ما يزالون ينشدون فى وعظهم وقصصهم أبياتاً وأشعاراً كثيرة منها ما يروونه عن القدماء ممن سبقوهم ، ومنها ما ينشئونه إنشاء ، فمن ذلك ما يروى عن صالح المرى القاصّ العابد من أنه كان كثيراً ما ينشد فى قصصه ومواعظه :

---

(١) العرس : الزوجة .

فبات يروِّى أصولَ الفَسيل فعاش الفسيلُ ومات الرَّجُلْ [١]

وكان مالك بن دينار المحدث الناسك لا يزال يتحدث فى مجالسه عن الموت ، حتى لتكاد تخنقه العبرات ، وله أشعار مختلفة يتحدث فيها عن القبور وأهلها وأنه أجل محدود ونفس معدود ، وعما قليل يصبح الإنسان ترابا فى تراب ، كمن سبقوه ، فأولى له أن يتعظ ويعتبر ، يقول[٢] :

أتيت القبورَ فناديتهـ ـنَّ أين المعظَّم والمحتقَرْ
وأين المدِلُّ بسلطانهِ وأين المزكَّى إذا ما افتخر
تفانوا جميعاً فما مخبرٌ وماتوا جميعاً ومات الخَبَرْ
تروح وتغدو بناتُ الثَّرَى فتمحو محاسنَ تلك الصُّوَرْ
فيا سائلى عن أُناسٍ مضوا أمالك فيما ترى مُعْتَبَرْ

وممن كان يكثر من إنشاد الشعر فى مواعظه سفيان بن عُيَيْنة وسفيان الثورى . وكأن الوعاظ بذلك قدموا مادة واسعة لمعاصريهم من الشعراء كى يصوغوا على نمطها مواعظ تذكى الزهد والعمل الصالح فى نفوس الناس ، وقد أقبل كثيرون ينظمون دقائق الزهد ، حتى بين المجان حين كانوا يثوبون إلى أنفسهم على نحو ما مر بنا عند أبى نواس ، وكما يلقانا عند محمد بن يسير ، وكان ماجنًا هجاء خبيثا ، فقد ألم يومًا بمجلس أبى محمد الزاهد صاحب الفُضَيْل بن عياض ، فأنشد[٣] :

وَيْلٌ لمن لم يرحم اللهُ ومن تكون النارُ مَثْوَاهُ
واغَفْلَتَا فى كل يومٍ مضى يُذْكرنى الموتَ وأنساه
من طال فى الدنيا به عُمْرُهُ وعاش فالموت قُصاراه
كأنه قد قيل فى مجلسٍ قد كنت آتيهِ وأغشاه
محمدٌ صار إلى ربِّهِ يرحمنا الله وإياه

وكان من الشعراء الخلعاء المجان من يقلع إقلاعا عن غيه ، فيكثر من أشعار

(١) البيان والتبيين ١/١١٩ والفسيل : صغار النخل .
(٢) عيون الأخبار ٢/٣٠٢ .
(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/٣٩ .

الزهدمكفِّراً بها عما قدمت يداه من مجون وخلاعة ، ومن خير من يمثل ذلك محمد ابن حازم ، وكان ينغمس فى اللهو والمجون ، حتى إذا بلغ الخمسين من سنِّه آلى على نفسه أن لا يشرب كأساً ولا يسير فى طريق غواية ، وأخذ يكثر من شعر الزهد حاضًّا على القناعة وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب من متاع الدنيا الفانى بمثل قوله[1] :

ومنتظرٍ للموت فى كل ساعةٍ يَشيد ويبنى دائماً ويحصِّنُ
له حين تبلوه حقيقةُ موقنٍ وأفعاله أفعالُ من ليس يوقن

وقوله الذى مرّ بنا فى الفصل الرابع :

اضرَعْ إلى الله لا تَضْرَع إلى الناسِ واقْنَعْ بِيَأْسٍ فإن العِزَّ فى الياسِ
واسْتَغْنِ عن كل ذى قُرْبى وذى رحمٍ إن الغنىَّ من استغنى عن الناسِ

وكثيرون كانوا يأخذون أنفسهم بحياة زاهدة حقيقية ، فهم لا يقفون على أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والأمراء والقواد ، بل يكتفون من العيش بالكفاف ، وإن عُرضت عليهم وظيفة أبوها حرصا على دينهم ورفضا لدنياهم ، ومن اشتهروا فى هذا الباب الخليل بن أحمد واضع النحو والعروض ، وله فى الزهد والعظة أبيات كثيرة من مثل قوله[2] :

عِشْ ما بدالك ، قَصْرُك الموتُ لا مهربٌ منهُ ولا فَوْتُ
بَيْنَا غِنَى بيتٍ وبَهْجَتُــه زال الغِنَى وتقوَّض البَيْتُ

واشتهر بأنه كان يأبى أن يصحب الخلفاء والحكام وذوى الجاه لما فى أيديهم من الدنيا ، ويروى أن سليمان بن قبيصة بن يزيد بن المهلب ، وكان والياً على السِّند ، وجَّه إليه يستزيره فكتب إليه[3] :

أَبْلِغْ سليمان أنى عنه فى دعَةٍ وفى غِنًى غير أنى لست ذا مالِ
سَخَّى بنفسىَ أنى لا أرى أحداً يموت هَزْلا ولا يبقى على حالِ

(١) انظر فى هذين البيتين وتاليهما العقد الفريد ٣/٢٠٧ .
(٢) البيان والتبيين ٣/١٨٣ .
(٣) إنباه الرواة ١/٣٤٤ .

الرِّزْق عن قَدَرٍ ، لا الضعفُ ينقصه ولا يزيدك فيه حَوْلُ محتالِ
والفقرُ فى النفس لا فى المال تعرفه ومثلُ ذاك الغِنَى فى النفس لا المالِ

وفى كل مكان يلقانا كثيرون يفرغون للنسك والتبتل والعبادة ، مما دفع لظهور مقدمات التصوف فى هذا العصر أو بعبارة أخرى إلى ظهور الحب الإلهى الذى يتجرد عن كل مادة وحسّ والذى يستغرق فيه المتصوفة مشغوفين بالحقيقة الإلهية ، وما ترسله على الكون من أضواء الحق والخير والجمال المطلق ، ومن أروع ما يصوّر ذلك أبيات رابعة العدوية المشهورة[1] :

أحبُّك حُبَّيْن : حُبَّ الهوى وحُبًّا لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حبُّ الهوى فشُغْلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهلٌ له فكَشْفُك لى الحُجْبَ حتى أراكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وهى تميز بين حبين : حب الله شكراً لإنعامه المتواصل على الإنسان فى دنياه ، وحبه لجماله وجلاله القدسى الذى رفعت الحجب والأستار بينها وبينه ، وهو الحب الصوفى المجرد الذى يفنى فيه المتصوفة فناء يحقق لهم السعادة . ومن المحقق أن التصوف لا يزدهر فى هذا العصر ، إنما يزدهر الزهد ، ومن أجل ذلك نقف عند ثلاثة من كبار الزهاد ، لتتضح لنا المعانى التى كانوا يرددونها فى أشعارهم ، وهم عبد الله بن المبارك ومحمد بن كناسة ومحمود الوراق .

عبد الله[2] بن المبارك

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح التميمى ولاءً ، التركى

---

(١) قوت القلوب للمكى ٣/٨٤ واحياء علوم الدين للغزالى ٤/٢٦٧ .

(٢) انظر فى ترجمة ابن المبارك وأشعاره الأنساب للسمعانى ١٧٩ ا وتاريخ بغداد برقم ٥٣٠٦ وصفة الصفوة ٤/١٠٩ وتذكرة الحفاظ للذهبى (طبع حيدر أباد) ١/٣٥٤ والتهذيب لابن حجر ٥/٣٨٤ والنجوم الزاهرة ٢/١٠٣ وكتاب الورقة لابن الجراح ص١٤ وحلية الأولياء لأبى نعيم ٨/٢٧٩ ومختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (طبعة الموسوعات) ص ٨٥ .

المروزى أبًا ، الخوارزمى أمًّا ، ولد سنة ثمانى عشرة ومائة للهجرة ، ورحل فى طلب الحديث والعلم سنة إحدى وأربعين ومائة ، فلقى المحدثين ، وروى عن جماعة كثيرة وروى عنه خلائق لا تحصى ، وهو يُعَدّ من كبار الحفاظ فى عصره وأحد من كانت تُشَدُّ إليه الرحال للنهل من معين علمه وفضله ، وكان يجمع بين حفظ الحديث والفقه على مذهب أبى حنيفة والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة . واشتهر شهرة مدوية بنسكه وزهده ، حتى قال سفيان الثورى : « لو جهدت جهدى أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك لم أقدر» . وكان يخرج مع الجيوش الغازية للروم يجاهد فى سبيل الله من جهة ، ومن جهة ثانية يعظ الجنود ويحمسهم للقتال ويُلقى على الناس الحديث فى الثغور من مثل طَرسوس . وهو بذلك يصحح فكرة شاعت عن زهاد المسلمين وعبادهم هى أنهم كانوا سلبيين لا يشاركون فى الواجبات الوطنية (وهى إحدى الأفكار التى أشاعها المستشرقون ظانين أن زهد المسلمين كان يفصلهم عن الحياة على شاكلة زهد الديانة المسيحية وما ارتبط بها من رهبانية ، وهو ظن واهم فإن زهاد المسلمين — وخاصة الأولين — لم ينفصلوا عن الحياة بل كانوا يتصلون بها ، ليكسبوا قوتهم ، ويعيشوا من كسبهم ، لا مما يلقى إليهم من فتات الموائد ، ولذلك كنا نجدهم يتجرون ويحترفون حرفا كثيرة على نحو ما سنرى عند محمود الوراق فإنه كان يحترف النخاسة وبيع الجوارى والإماء ، وكان عبد الله بن المبارك يتجر ليكسب معاشه . وكانوا يلبون دائمًا نداء الوطن ويتقدمون الصفوف المجاهدة طلبًا للاستشهاد فى سبيل الله . وكانوا يعدون هذا الجهاد أروع وأعظم عند الله من نسك النساك ، ويقدم لنا ابن المبارك نفسه وثيقة طريفة توضح ذلك أتم توضيح ، فقد روى الرواة أنه أملى وهو بطرسوس رسالة شعرية وجّه بها إلى الفضيل ابن عياض الناسك المشهور فى سنة سبع وسبعين ومائة ، وكان مجاورا بمكة :

يا عابدَ الحَرَمَيْنِ لو أبصرتنا ... لعلمتَ أنك فى العبادة تلعبُ

مَنْ كان يَخْضِبُ جِيدَه بدموعهِ ... فنُحورُنا بدمائنا تتخضَّبُ

أو كان يُتْعب خَيْله فى باطــلٍ ... فخيولُنا يوم الصَّبيحة تَتْعَبُ

رِيحُ العِبيرِ لكم ونحن عَبيرُنا ... وَهَجُ السَّنابكِ والغبارُ الأَطيبُ

ولقد أتانا من مقال نبيِّنا قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يُكْذَبُ
لا تستوى أغْبارُ خَيْل الله فى أنْفِ امرىءٍ ودخان نارٍ تَلْهَبُ[1]
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميِّتٍ لا يَكْذِبُ

وواضح أن ابن المبارك يرفع الجهاد فوق العبادة درجات، حتى ليدعوها بالقياس إليه ضرباً من اللعب . وهو يصور الهوة التى تفصل بينهما ، فالناسك يقدم لربه دموعه والمجاهد يقدم دماءه ، متخذاً الخيل العاديات لا فى لهو وإنما فى التضحية والاستشهاد طلباً لرضوان الله، متطيبا بطيب أكثر شذى وعطراً من الطيب الحقيقى، طيب غبار الحرب وسنابك الخيل وهى تقدح الأرضَ قدحاً . ويقول إن الإسلام أعلى الجهاد على النسك والعبادة مشيراً إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبدا » كما يشير إلى ما جاء فى الذكر الحكيم من أن شهيد الجهاد لا يموت ، بل يظل حيا عند ربه حيّاة خالدة : (ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يُرْزَقُون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أنْ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمةٍ من الله وفَضْلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وفى موضع آخر من التنزيل : (ولا تقولوا لمن يُقْتَلُ فى سبيل الله أمواتٌ بل أحياء ولكن لا تشعرون) . وهى ميزة خصَّ بها الله سبحانه المستشهدين فى سبيله دون سائر المؤمنين من نساك وغير نساك ، إذ جعلهم يحيون فى قبورهم حياة برزخية خاصة لا يعلم حقيقتها سواه .

ولابن المبارك موقف ثان يصور كيف كان الزهاد من العلماء والمحدثين يتعففون فى مثل هذا العصر عن الوظائف ومناصب الدولة خوفاً على أنفسهم من أن تغرهم الدنيا فينحرفوا عن الجادَّة ، فقد ذكروا أن أحد أصحابه وهو إسماعيل بن عُلَيَّة وَلِىَ الصدقات بالبصرة ، فكتب إليه يذكر ذلك ويقول له : أحب أن تبعث إلىَّ إخواننا من القُرَّاء لنَشْغَلَهُمْ ، فأجابه : القُرَّاء ضربان : قوم طلبوا هذا الأمر (أى قراءة القرآن) لله فأولئك لا حاجة لهم فى لقائك ، وقوم طلبوه للدنيا فأولئك أضرُّ على الناس من الشُّرَط ، وألحق بجوابه هذه الأبيات :

---

(١) الأغبار : جمع غبرة ، وهى الغبار .

يا جاعلَ الدينِ له بَازِيًا يصطاد أموال المساكين
احتلتَ للدنيا ولذَّاتِهـا بحيلـةٍ تذهبُ بالدين
وصرت مجنوناً بها بعدما كنت دواءً للمجانين
أين رواياتُك فيما مضى عن ابن عَوْنٍ وابن سِيرينِ
أين رواياتك فى سَرْدها فى ترك أبواب السَّلاطين
إن قلتَ أُكْرِهتُ فذا باطلٌ زلَّ حِمَارُ العلم فى الطِّين

وكان كثيراً ما يستشهد بقول المسيح عليه السلام : « كما ترك لكم الملوك الحكمة فاتركوا لهم الدنيا » ونظم ذلك شعراً قائلا :

أرى أُناساً بأَدنى الدينِ قدقنعوا ولا أراهم رضوا بالعَيْش بالدُّونِ
فاسْتَغْنِ بالدِّين عن دنيا الملوك كما اسـ تغنى الملوك بدنياهم عن الدينِ

وهو كثير التنفير من الدنيا ومتاعها الذى يزول وتبقى تبعاته ، بل إنه ليحمل بين طيِّاته من السموم ما يجعل العاقل يرى فيه حَيَّة ليِّنا مسُّها قاتلا سَمُّها :

حلاوةُ دنيـاك مسمومةٌ فما تأكل الشَّهْدَ إلا بِسَمّْ

وهى خَدَّاعة غرور ، لا يكاد يطمئن شخص فيها إلى سرور حتى يهجم عليه حزن مفجع أو مصيبة موجعة ، فمن جرَّعته يوما حلاوتها جرَّعته أياما مرارتها :

دنيا تداولها العبادُ ذميمةً شِيبَتْ بأَكْرَهَ من نقيع الحَنْظَلِ
وبناتُ دهرٍ لا تزال مُلمَّةً فيها فجائعُ مثل وَقْع الجَنْدلِ

وإنه لواجب على كل إنسان أن يعصى هوى نفسه ، فانها إمارة بالسوء ، وإن هو أطاعها حملته مالا يطيق من الذنوب والآثام ، عاصفة منه بسلطان العقل موردة له موارد الهلاك :

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوب ويَخْترمُ العقلَ إدمانُها
يبيع الفتى نفسَه فى رَداه وأَسْلَمُ للنفس عصيانها

وعلى هذا النحو كان ابن المبارك يكثر من النظم فى الدعوة إلى التقوى واجتناب الآثام والشهوات كما كان يكثر من الدعوة إلى الزهد وذم الدنيا فإنها لا تمس أحداً بفرح حتى تملأه بترح ، والحازم من تزود من يومه لغده ومن حياته لآخرته . وقد لبى نداء ربه سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة .

محمد[1] بن كُناسة

كناسة لقب أبيه واسمه عبد الله بن عبد الأعلى من بنى أسد ، وقد ولد ونشأ بالكوفة فى بيت صلاح وتقوى ، إذ كان خاله إبراهيم بن أدهم أحد من تُذكر أسماؤهم فى نشأة التصوف . ونراه يختلف إلى حلقات المحدثين اختلافاً أتاح له أن يُحْمَلَ الحديث عنه ، وأن يُعَدَّ فى رجاله . ويظهر أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، غير أنه كان — كما يقول أبو الفرج — امرءاً صالحاً فلم يتصدَّ لأحد بمدح ولا هجاء ، بل قصر شعره على الزهد وما يتصل به من رياضة النفس على ترك الهوى والاتعاظ بالدنيا وفناء لذاتها وبقاء تبعاتها ، فنعمها دائماً زائلة ونقمها نازلة ، ومهما طال عمر الإنسان فيها فإلى بِلًى وفناء وإلى كوارث وفواجع ، فكلنا يجرى إلى غاية ينتهى عندها أجله ، ومن عجب أن تتعلق قلوبنا بها ، ونحن كل يوم نقطع مسافة إلى تلك الغاية المحتمة ، بل إن منا من يضل طريق الرشاد فيتبع نفسه وهواها ، وكان حرياً به أن يقهرها ويدفع عن نفسه بادرة سطوتها حتى يصون دينه ، يقول :

ومن عجب الدُّنْيَا تُبَقِّيك لِلبِلَى ... وأنك فيها للبقاء مريدُ
وأىُّ بنى الأيام إلا وعنده ... من الدهر ذنبٌ طارفٌ وتَليدُ
ومن يأمن الأيامَ أما اتِّساعها ... فَخَطْرٌ وأما فَجْعُها فَعتيد[2]
إذا اعتادت النفسُ الرضاعَ من الهوى ... فإن فِطامَ النفس عنه شديد

---

(١) انظر فى ابن كناسة وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/٣٣٧ ، والفهرست لابن النديم ص ١٠٥ ، والنجوم الزاهرة ٢/١٨٥ .

(٢) اتساعها : نعيمها . خطرهنا : متقطع. عتيد : مهيء حاضر .

وهو يكرر الحديث عن فطام النفس من الشهوات واللذائذ وأنه ثقيل وأن السعيد من عصى هواه فى طاعة ربه ، فاجتنب المحارم والمآثم ، ويلاحظ أن من الناس من يلوك الأحاديث فى عواقب اتباع الهوى ، وكأنه يقول بفمه ما ليس له ظل فى قلبه ، أو كأنه يَعِظُ ولا يتعظ ، وفى ذلك يقول :

ما مَنْ رَوَى أدباً ولم يعمل بهِ ... ويكفَّ عن زَيْغ الهوى بأَديبِ
حتى يكون بما تعلَّم عاملا ... من صالحٍ فيكون غير معيب
ولقلما تُغْنِى إصابةُ قائلٍ ... أفعاله أفعالُ غيرِ مصيب

فالكلمة إن لم تصدر من القلب لم يكن لها تأثير فى القلوب ، وعظة الواعظ إن لم تشفع بعمله كان هو أول من لا ينتفع بها ، وكانت كالسراج يضئ الدار ويحرق نفسه .

وكان أصدقاؤه من طلاب الدنيا لا يزالون يتلومونه على قعوده عن أبواب الحكام والأمراء ، بينما هو يحسن نظم الشعر ، ونظراؤه يكسبون به الألوف المؤلفة ، وهو يعيش فى كفاف وبُلَغ وصُبابة ، فكان يردهم ردًّا منكراً ، إذ أعرض عن الدنيا مصمما ، غير راغب فى متاعها ، فحسبه متاع الآخرة الذى ينتظره والذى يحفظ على نفسه من أجله ماء وجهه ويصون كرامته ، فلا يبتذلها لمخلوق ، فضلا عن أن يمدحه ويداهنه ويطلب منه ما ينبغى أن لا يتجاوز فى طلبه ربه . إنه إن فعل طعن وجهه وحياءه طعنة نجلاء ، بل طعن زهده وتقواه ، إذ يصبح من طلاب الدنيا لا من طلاب الآخرة ومن يؤثرون نعيم العاجلة على نعيم الباقية ، يقول مجيبًا بعض لائميه :

تؤنِّبنى - أن صُنْتُ عِرْضى - عصابةٌ ... لها بين أطنابِ اللثام بَصِيصُ[1]
يقولون لو غمَّضْتَ لازددتَ رفْعَةً ... فقلتُ لهم إنى إذنْ لحَرِيصُ[2]
أتَكْلِمُ وجهى - لا أباً لأبيكمُ - ... مطامعُ عنها للكرام مَحِيصُ[3]
معاشى دُوَيْنَ القوت ، والعِرْض وافرٌ ... وبَطْنَىَ عن جَدْوى اللئام خَمِيصُ[4]

(١) الأطناب : حبال الخيام والاستعارة واضحة . بصيص : بريق .
(٢) غمضت : تساهلت . حريص : جشع
(٣) تكلم : تجرح .
(٤) الجدوى : العطية . خميص : ضامر .

سأَلْقى المنايا لم أُخالطْ دَنيَّةً … ولم تَسْرِ بى فى المخزيات قَلُوص(١)

وكانت له جارية شاعرة مغنية تسمى دنانير وكان ذوو المروءة من أهل الأدب يقصدونها للمحادثة والمساجلة فى الشعر ، وكان يقدرها لظرفها وسعة ثقافتها وقدرتها على المشاركة فى كل الأحاديث ، واختطفها منه الموت ، فحزن حزنًا عميقًا ، صوّره فى قوله يرثيها ، وقد استسلم لأمر ربه :

الحمدُ لله لا شريكَ له … ياليت ما كان منكِ لم يكن
إن يكن القول قَلَّ فيك فما … أفْحمَنى غيرُ شدَّة الحَزَنِ

وله مرثية طريفة فى خاله إبراهيم بن أدهم ، وهى ترسم صورة العابد الناسك فى العصر العباسى الأول وكيف كان يعيش على الكفاف قانعًا به ، مزدرياً الدنيا ومتاعها ، مقبلا على عبادة ربه ، قامعا لدواعى الهوى فى نفسه ، متحليا بالفضائل الرفيعة ، لا يعرف الغضب ولا الطيش ، إنما يعرف الحلم والمثل الخلقية العليا ، يعيش صامتاً مفكراً فى ملكوت ربه الأعلى ، حتى إذا نطق استولى على القلوب والأفئدة ببيانه الرائع . وهو دائمًا مستكين خاضع لربه متواضع أروع ما يكون التواضع الذى لا يخدش مروءة ولا كرامة ، حتى إذا رعدت الكتيبة بصواعق الموت تقدم الصفوف يناضل مناضلة الليوث الكواسر . وفى ذلك كله يقول مخاطباً بعض من لا يزالون يستزيدون من الغنى والثراء :

رأيتك ما يكفيك ما دونه الغِنَى … وقد كان يكفى دون ذاك ابنَ أَدْهما
وكان يرى الدنيا صغيرا عظيمُها … وكان لحقِّ الله فيها معظِّما
أمات الهوى حتى تجنَّبه الهَوَى … كما اجتنب الجانى الدَّم الطالب الدَّما
وللحلم سلطانٌ على الجهل عنده … فما يستطيع الجهل أن يَتَرَمْرَمَا(٢)
وأكثر ما تلقاه فى القوم صامتاً … وإن قال بَذَّ القائلين وأحكما
يُرَى مستكيناً خاضعاً متواضعاً … ولَيْثاً إذا لاقى الكتيبةَ ضَيْغَما

---

(١) القلوص من النوق : الشابة .

(٢) يترمرم : لا يتحرك للكلام .

على الجَدَثِ الغربىِّ من آل وائلٍ   سلامٌ وبِرٌّ ، ما أبَرَّ وأكرما[١]

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور كيف كان ابن كناسة يُصْفِى قلبه وعقله للزهد وكيف كان يمزجه بنفسه ، وكيف كان يعيش له وبه مؤمنًا بأنه الغاية العليا التى ينبغى أن يطمح إليها الإنسان ويقصر عليها حياته ، حتى يفوز برضوان ربه ، وقد لبى نداءه لسنة سبع ومائتين للهجرة .

محمود [٢] الوراق

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة توضح حياة محمود ، ويقال إنه كان نخاساً ببغداد يبيع الرقيق ، ويبدو أنه كان فى فاتحة حياته يأخذ بحظ من اللهو ، ثم كفَّ نفسه وردعها ، وأخلص وجهه لربه . وفى أخباره ما يدل على حسن عشرته لجواريه وأنهن كن لا يؤثرن عليه أحدا ، وكانت جاريته سكن من بينهن من أحسن قريناتها وجهًا ، وكانت تتقن الغناء وتنظم الشعر البارع ، فملكت عليه لُبَّه وقلبه ، وحدث أن رقّت حاله واختلت حياته ، فرأى أن يبيعها حتى يوفرّ لها خفض العيش عند غيره ، وتنافس الناس فى اقتنائها ، وعرض فيها أحد الطاهريين مائة ألف درهم ، فمال محمود إلى بيعها ، ولما عرض عليها ذلك بكت وذرفت الدموع ، وقالت له إنى أختار عيشة الفقر معك ، فرقّ لها وحرَّرها وأصدقها داره ، وكانت كل ما يملك . ومن طريف ما يروى من أخبار جواريه اللائى كن ينعمن بعطفه أن المتوكل عرض له فى إحداهن عشرة آلاف دينار ، فأبى ، فلما توفى اشتراها فى ميراثه بخمسة آلاف دينار . وذكر لها المتوكل ما كان من أمر محمود معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين إذا كانت الخلفاء تتربّص بلذاتها المواريث فسنشترى بأرخص مما اشتريت.

ولعل العصر العباسى الأول لم يعرف شاعراً أكثر من الحديث عن الزهد واعظاً مذكراً كما أكثر محمود ، وهو يتخذ لذلك مواقف متعددة ، منها موقف وجوب الطاعة لله ولأوامره ونواهيه ، فالمسلم الصحيح ينبغى أن لا يقترف إثماً ولا يرتكب معصية ، وإلا أوثقته ذنوبه ولم يجد من يخلصه من عذاب الله ووعيده ، وحرى

---

(١) الجدث : القبر .

(٢) انظر فى محمود وأخباره وأشعاره تاريخ بغداد ١٣/٨٧ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص٣٦٧، ٤٢٢ والبيان والتبيين ٣/١٩٧ وما بعدها والعقد الفريد ١/٢٢٨ ، ٢/٢٨٥ ، ٣/١٧٩ ، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٥ وما بعدها ، ٦/٤٠٤ وفوات الوفيات ٢/٢٨٥ وعيون الأخبار ٣/٥٣ .

obeikandi.com

بمن ألهته الدنيا ، وتراكمت عليه الذنوب ، أن لا يؤمل فى جنة ولا ثواب ، فقد استحق العقاب ، يقول :

يا غافلا ترنو بعينى راقدٍ ومشاهدًا للأمر غيرَ مشاهدِ
تصلُ الذنوب إلى الذنوب وترتجى دَرَكَ الجِنانِ بها وفوزَ العابدِ
ونسيتَ أن الله أخرج آدماً منها إلى الدُّنْيا بذنبٍ واحدِ

لا بد للمسلم إذن أن يبادر إلى العمل الصالح وأن يجافى الذنوب والآثام حتى يكون حقًّا مطيعاً لربه ، وهى طاعة لاتتم معرفة الله وشكر نعمه بدونها ، بل لاتتم محبته محبة صحيحة إلا إذا ألحَّ الإنسان فى التماسها وابتغى إليها كل وسائل العبادة متحامياً المعاصى وكل ما يجر إلى العصيان ، منقطعًا إلى الله متبتلا له ، يقول :

تعصى الإله وأنت تظهر حُبَّه هذا محالٌ فى القياس بديعُ
لو كنت تضمر حبَّه لأطعته إن المحبَّ لمن أحبَّ مُطيع
فى كل يومٍ يَبْتليك بنعمةٍ منه وأنت لشكرِ ذاك مُضيع

وموقف ثان هو موقف الرضا بقضاء الله ، وهو موقف يملأ نفس الزاهد طمأنينة وراحة ، بل تفاؤلا وأمنا ، فلا يخشى شيئًا ، إذ لا يتمنى غير ما يحدث ، وكل ما ينزل به يتقبله بنفس راضية ، يقول :

قَدَرُ الله كائنٌ حين يُقْضَى وُرُودُهُ
قد مضى فيك عِلْمه وانتهى مـــا يريده

وموقف ثالث هو التوكل الحق على الله والثقة به ، والاعتماد عليه دون سواه من الناس ، فهو الكافل والضامن ، وهو الذى يقدِّر ما يصيب الإنسان ، ولن يستطيع الوصول إليه قبل موعده المقدور ولو طلبه بقوة السماء والأرض ، وقد كفل له رزقه وضمن له حياته ، فنعم الضامن الكفيل ، يقول :

أتطلب رزق الله من عند غيرهِ وتصبحُ من خوف العواقب آمنا
وترضى بعرَّافٍ[1] وإن كان مُشْركا ضَمينا ولا ترضى بربِّك ضامنا

(١) العراف : المنجم والناظر فى الغد .

ويقول :

أما عجبٌ أن يكفل الناسُ بعضهم ببعضٍ فيرضى بالكفيل المطالبُ
وقد كفل الله الوفيُّ بعهدهِ فلم يُرْضَ والإنسان فيهِ عجائبُ
عليمٌ بأن الله موفٍ بوعدهِ وفى قلبه شكٌّ على القلب دائبُ

وهذا الموقف أدّاه إلى موقف رابع هو القناعة ، أو بعبارة أخرى أن يقنع الإنسان بما عندالله وما ادّخره له فى يومه وغده ، وأن يُقْلع عن الطمع وإلا أصبح ما يكفيه لايكفيه وإن أقبلت عليه الدنيا بحذافيرها ، بل إن شدة الطمع تؤدى بصاحبها إلى أن يصبح أشد ضنكا من الفقير المحتاج ، والغنى الحقيقى هو غنىُّ النفس القانع لا غنىّ الثراء الجشع ، وفى ذلك يقول :

من كان ذا مالٍ كثيرٍ ولم يَقْنَع فذاك الموسِرُ المُعْسِرُ
وكلُّ من كان قنوعاً وإنْ كان مُقِلاًّ فهو المُكْثِرُ
الفقرُ فى النفس وفيها الغِنى وفى غنَى النفس الغِنى الأكبر

ويكثر محمود من تقريع غنىّ المال فقير النفس ، مصوراً جشعه فى جمع الدراهم والدنانير وإلحاحه فى طلبها ، واسترقاقها له ، بل عبادته لها وهيامه بها الذى لا يقف عند حد ، إذ فتنته عن نفسه وعن دينه وعن ربه. وكان يعجب عجبًا شديداً كيف يجمع عبدة المال بينه وبين عبادة ربهم وهو قد استأثر بقلوبهم وعواطفهم وأهوائهم وملك عليهم كل شىء من أمرهم ، يقول :

أظهروا للناس ديناً وعلى الدينار داروا
وله صاموا وصَلُّوا وله حَجُّوا وزاروا
لو بدا فوق الثُّرَيَّا ولهم ريشٌ لطاروا

ودائماً يقول ألا تَبًّا للغنى الذى يتملك الإنسان ويستعبده ، ومرحى بالفقر وعيشة الكفاف التى يعيشها الزهاد ، غير ملتمسين شيئًا فوق ما يسد رمقهم ويدفع الحاجة عنهم ، ويكفى فقر الزهاد سمواً أنك لا تجد فقيراً يعصى الله ليفتقر ، بينما يفتح الثراء على

أصحابه أبواب الحرص والطمع ، بل إنهم يخوضون إليه أحيانًا أبواب المعاصى ومن ورائها أبواب سقر ، وفى ذلك يقول هذه الأبيات التى أنشدناها فى الفصل الرابع :

يا عائبَ الفقر ألا تَزْدَجِرْ عَيْبُ الغِنى أكثر لو تَعْتَبِرْ
من شرف الفقر ومن فضلهِ على الغِنى إن صَحَّ منك النَّظَرْ
أنك تعصى كى تنال الغِنى وليس تَعْصِى الله كى تفتقر

وموقف خامس هو الصبر عند فواجع الزمان فإن من حسنت عقيدته استقبل الكارثة كما يستقبل النعمة ولم تذهب نفسه حسرات إزاء صروف الدهر ، بل تدرَّع بالصبر الجميل درع العباد الناسكين الذين خبروا الحياة وعرفوا أنها هَمٌّ تِلْوَ هَمٍّ وأن كل شىء فيها إلى فناء ، يقول :

يمثِّل ذو الُّلبِّ فى نفسهِ مصائبَه قبل أن تنزلا
فإن نزلتْ بَغْتَةً لم تَرُعْهُ لما كان فى نفسه مثَّلا
رأى الهمَّ يفضى إلى آخَرٍ فصيَّر آخِرَه أولا
وذو الجهل يأْمن أيَّامه ويَنْسَى مصارعَ من قد خلا
فإن بَدَهْتُه صروفُ الزمان ببعض مصائبِه أعْوَلا
ولو قدَّم الحزمَ فى أمرهِ لعلَّمه الصَّبْرَ عند البَلا (١)

وموقف سادس هو اتخاذه من الشيب نذيراً للموت ، وأنه إذا دبَّ السواد خلال البياض كان حريًّا بالإنسان أن يقلع عن غَيِّه ويتزود لآخرته ، فقد دقت أجراس الموت وملأت الفضاء من حوله ، وجدير به أن يبكى ويتفجع على نفسه ، فالحياة توشك أن تنقضى ويوشك ظِلُّها أن ينحسر عنه إلى غير مآب ، كما انحسر عن الأفراد والأمم ، يقول :

بكيتَ لقُرْب الأَجَلْ وبُعْد فوات الأَمَلْ

---

(١) البلا : مقصور البلاء .

ووافدِ شَيْبٍ طَرَا بِعقْبِ شبابٍ رَحَلْ
شبابٌ كأَن لم يكن وشيبٌ كأَنْ لم يَزَل
طواك بَشِيرُ البقاء وحَـلَّ بشير الأَجَلْ
طوى صاحبٌ صاحباً كذاك اختلافُ الدُّولْ

وموقف سابع هو العفو عن الظالم ، فهو لا يلقى الإساءة بالإساءة إذ يجد فى ذلك وقوداً لتهييجها ، وإنما يلقاها بالعفو والرفق والبر والرحمة مطفئًا نار الجهل بالحلم وموجدة الغضب بالصفح . وهى خصلة من خصال الإسلام الرفيعة حث عليها الذكر الحكيم بمثل قوله : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقوله : (وأن تعفوا أقرب للتقوى) . وإنما أراد الإسلام بذلك أن يزرع البِرَّ والمحبة فى قلوب المسلمين بعفو بعضهم عن بعض ، مع وعده لهم على هذا الصنيع بالأجر والمثوبة الحسنة . وعن كل ذلك صدر محمود فى تصوير عفوه عن بعض ظالميه قائلا :

إنى وهبتُ لظالمى ظُلْمى وغفرتُ ذاك له على علْمِ
ورأيتُه أَسْدى إلىَّ يَدًا لما أبان بجهله حِلْمى
رجعتْ إساءتُه عليه وإحْ سانى إلىَّ مضاعَف الغُنْمِ
وغدوتُ ذا أَجْرٍ ومحمدةٍ وغدا بكسْب الظلم والإثْمِ
وكأَنما الإحسان كان لَهُ وأنا المسىءُ إليه فى الحكم
ما زال يظلمنى وأَرحمه حتى رثيتُ له من الظُّلْمِ

وهذه المواقف الزهدية المختلفة لمحمود توضح غزارة فكره وأنه كان يستمد من معين عقلى وروحى لا ينضب ، فهو تارة يرغب فى محاسن الأخلاق والشيم وتارة يعظ ويذكر ناصباً الموت أمام أعين الناس حاثّاً لهم على الإعراض عن الدنيا ومتاعها الفانى والتوكل على الله والرضا بقضائه واتخاذ العدة للقائه ، وقد توفى فى حدود المائتين والثلاثين أو بعدها بقليل .

٤

شعراء الاعتزال

تحدثنا فى الفصل الثالث عن كثرة الفرق الكلامية فى هذا العصر ، وقلنا إن فرقة المعتزلة كانت أهم هذه الفرق ، حتى ليمكن أن نسمى هذا العصر عصر الاعتزال ، وقد ملئوا مساجد البصرة بجدالهم العنيف مع أهل النحل والملل المختلفة ، واستمالوا كثرة الشباب إلى عقيدتهم بما أوتوا من قوة اللسن والفصاحة وما سلحوا به عقولهم من المنطق والفلسفة ، بل لقد استمالوا الخلفاء منذ عصر المأمون ، فإذا هو يعلن رأيهم فى أن القرآن مخلوق عقيدةً رسمية للدولة. وكانوا — كما أسلفنا — يعلون النظر العقلى إعلاء كبيراً ، حتى ليحيط بشر بن المعتمر العقل — كما مرَّ بنا فى الفصل الرابع — بهالة قدسية ، وهو إعلاء جعلهم يقولون بأن إرادة الإنسان حرة يفعل ما يشاء بمحض اختياره، حتى يوجبوا عليه التكليف وثمرته من الثواب والعقاب حسب عمله ، وأدَّاهم ذلك إلى البحث فى العلاقة لا بين الله والإنسان فحسب ، بل أيضًا بين الله والطبيعة، ففيها علل ثانوية فعّالة تقابل حرية الإرادة عند الإنسان، وإذا كان الله يتصف بالعدل إزاء الإنسان وثوابه وعقابه فإنه يتصف بالحكمة إزاء الطبيعة وكل ما خلقه فيها وبثَّه حتى من عناصر الشر . وبلغ من تمجيدهم العقل أن قالوا إن الإنسان يستطيع به حتى لو لم تصله الشرائع أن يعرف أن للعالم إلها واحداً خالقا حكيما ، يعرف ذلك عن طريق مصنوعاته ، وأفضى بهم ذلك إلى مباحث واسعة فى الطبيعة . وقد نزهوا الله عن التشبيه والزمان والمكان والحركة ، وقالوا إن صفاته عين ذاته . وأفاضوا فى هذه المباحث وما يماثلها إفاضة بحيث أصبح لكثير منهم مذاهب اعتزالية متميزة على نحو ما صورنا ذلك فى الفصل الثالث من بعض الوجوه

ولا يكاد يلم القارىء بآرائهم ومذاهبهم فى كتاب مثل كتاب الملل والنحل للشهرستانى حتى يهوله ما امتازت به عقولهم من خصب وامتياز ، فقد استطاعوا أن ينفذوا من خلال كل ما قرءوا من ثقافات وفلسفة مترجمة إلى فلسفة إسلامية حقيقية، بحيث لا نغلو إذا قلنا إنهم فلاسفة العرب الأولون ، إذ لم يقفوا بمباحثهم عند العقيدة

الإيمانية ، بل بسطوها حتى وسعت كل ما خاض فيه اليونان وغير اليونان من مسائل الإلهيات والطبيعيات مما يتصل بمبادىء الموجودات والجسمانيات والروحانيات التى وراء الطبيعة والعناصر المكونة للمحسوسات وكل ما تنبعث عنه الحركات فى الكون والنفس الإنسانية . وبذلك تحوّل الاعتزال فى هذا العصر إلى ما يشبه كنزاً فلسفيًّا سائلا ما يزال يرفد الفكر العربى بدرره وجواهره ، وتحوّل شباب الشعراء وغيرهم يستمدون منه عتاداً لعقولهم ومادة خصبة لخواطرهم ، مما جعل أبا نواس وغيره يلوكون بعض مصطلحاتهم .

وكان من المعتزلة أنفسهم شعراء كثيرون شاركوا فى مجال الشعر ، ومشاركتهم فيه تأخذ وجهتين : وجهة عامة فهم ينظمون فيما ينظم فيه غيرهم من موضوعات الشعر وأغراضه ، ووجهة خاصة فهم ينظمون فى الاحتجاج لآرائهم الكلامية وفيما يتصل بها من بعض المباحث فى الطبيعة ، وكثيراً ما يردّون على خصومهم من أصحاب النحل المختلفة . وأقدم شاعر منهم يلقانا فى فاتحة هذا العصر صفوان الأنصارى تلميذ واصل بن عطاء ونراه يتصدّى لبشار حين عرف فيه أستاذه إلحاده ونادى فى الناس أن يقتلوه ، لقوله بالرجعة ولتفضيله النار على الطين وبالتالى إبليس على آدم معتذراً له عن عصيانه لربه حين طلب إليه السجود له ، فأبى وآب بالكفر والعصيان والخذلان . ولصفوان فى تصديه لبشار موقفان : موقف يمدح فيه واصلا ويتحدث عن أتباعه وذبّهم عن الدين وحرماته وما أوتوا من الفصاحة واللدد فى الخصومة ، وكيف يضربون فى أقطار الأرض داعين للإسلام ولعقيدتهم ، مستطرداً إلى وصف سيمائهم ونسكهم وتقشفهم ، وفيهم وفى أستاذهم يقول :

تلقَّب بالغَزَّال واحدُ عَصْرِهِ ... فمَنْ لليتامى والقبيل المكاثرِ [1]
ومنْ لحَرُورىٍّ وآخرَ رافضٍ ... وآخرَ مُرْجِئٍّ وآخر جائرِ
وأمرٍ بمعروفٍ وإنكار منكَرٍ ... وتحصين دين الله من كلِّ كافر
له خَلْف شعْب الصِّين فى كل ثُغْرَةٍ ... إلى سُوسها الأَقْصى وخلفَ البرابر

(١) لقب واصل بالغـزال لأنه كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين ، وعلل المبرد لذلك بأنه كان يريد الوقوف على المتعففات من النساء ليصرف صدقته إليهن . وانظر فى الأبيات البيان والتبيين ١ / ٢٥ وما بعدها .

رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عَزِيمَهُمْ تهكُّمُ جَبَّارٍ ولا كَيْدُ ماكرِ
وأوتادُ أرض الله فى كل بلدةٍ وموضعُ فُتْيَاها وعلمِ التشاجُرِ

وموقف ثانٍ سبق أن عرضنا له فى ترجمتنا لبشار ، ينقض فيه تفضيله النار على الأرض ونفوذه من ذلك إلى تصويب رأى إبليس فى رفضه أمر ربه له بالسجود لآدم ، كما ينقض مزاعمه فى الرجعة والتناسخ وتكفيره لجميع الأمة ، وخير ما يصور ذلك داليته التى أنشدها الجاحظ ، وهو فيها يسهب فى بيان فضائل الأرض ، بادئًا بأنها تحمل فيما تحمل النار ، على نحو ما هو معروف فى الحجارة والزند ، ثم يفيض فى بيان طرائفها المبثوثة فى البحار من لآلىء وغير لآلىء ، ومن عنبر وغير عنبر ، مع ما تحمل من السمك السابح ، إلى طرائف لا تكاد تحصى فى الجبال والحرار وظاهر الأرضين من الأحجار الكريمة والذهب والفضة والمعادن النفيسة ، بالإضافة إلى الأماكن المقدسة ، مما يدل دلالة ناصعة على عظمة الخالق ، ومن قوله فى ذلك [1] :

زعمتَ بأن النارَ أكرمُ عُنْصُرًا وفى الأرض تَحْيَا بالحجارة والزَّنْد
وتُخْلَقُ فى أرحامها وأرومها أعاجيبُ لا تُحْصَى بخطٍّ ولا عَقْدِ[2]
وفى القَعْرِ من لُجِّ البحارِ منافعٌ من اللؤلؤ المكنون والعنبر الوَرْد[3]
وفى قُلَلِ الأجْبال خلف مقطَّمٍ زبرجدُ أملاك الورى ساعةَ الحَشْد[4]
وفى الحرَّة الرَّجْلاء تُلْفَى معادنٌ لهنَّ مغاراتٌ تبجَّسُ بالنَّقْد[5]
من الذهبِ الإبريز والفضة التى تروق وتُصْبِى ذا القناعة والزُّهد
وكل فِلِزٍّ من نحاسٍ وآنُكٍ ومن زئبقٍ حَىٍّ ونوشاذُرٍ يُسْدِى[6]
وكلُّ يواقيتِ الأنام وحلْيها من الأرض والأحجار فاخرةِ المجد

(١) البيان والتبيين ١/٢٧ .
(٢) العقد : الحساب ، ويريد العد .
(٣) الورد : الأحمر .
(٤) المقطم : جبل مصر الممتد من القاهرة إلى أسوان على الشاطىء الشرقى للنيل .
(٥) الحرة : أرض بركانية سوداء الحجارة . الرجلاء : الوعرة الخشنة . تبجس : تتفجر .
(٦) آنك : رصاص . النوشاذر بالذال والدال : حجر أبيض صاف كالبلور .

وفيها مقامُ الخِلِّ والرُّكْنُ والصَّفَا ومُسْتَلَمُ الحُجَّاج من جَنَّة الخُلْدِ

ويأخذ صفوان بعد ذلك فى بيان حقيقة بشار ويظهر أنه كان حينئذ يردِّد آراء فرقة الكاملية إحدى فرق الشيعة الغالية ، وقد أكفر صاحبهم أبو كامل جميع الصحابة لتركهم بيعة على وطعن فى على لقبوله التحكيم ولأنه قعد فى عهد الخلفاء الثلاثة الأول عن المطالبة بحقه ، وكان يرى أن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى شخص . ويظهر أيضًا أنه كان يردد بعض ما قاله ديصان ومانى عن النور والظلمة وأنه كان لا يزال يلوك أسماء غالية الشيعة من مثل ليلى الناعظية وأبى منصور العجلى وابن عمه المغيرة بن سعيد وغيرهم ، ويسجِّل ذلك كله صفوان عليه ، يقول :

أتجعلُ عَمْرا والنِّطاسِيَّ واصلا كأتباع دَيْصانٍ وهُمْ قُمُشُ المدِّ[1]

فيا ابنَ حليفِ الطِّين واللؤم والعمى وأبْعدَ خَلْقِ اللهِ من طُرُقِ الرُّشْدِ[2]

أتهجو أبا بكرٍ وتخلع بعده عليًّا وتَعْزُو كلَّ ذاك إلى بُرْد[3]

كأنك غضبانٌ على الدين كلِّه وطالبُ ذَحْلٍ لا يبيت على حقْدِ

أتجعل ليلى الناعظيَّةَ نِحْلةً وكلَّ عريقٍ فى التناسخ والرَّدِّ

وقد خلص بشار بعد ذلك للمذاهب المجوسية وعبادة إلهى النور والظلمة . ولم يصلنا لصفوان ردود على الملحدة وأصحاب النحل والأهواء المختلفة وراء هذا الرد على بشار ، وأغلب الظن أنه كان يرد عليهم كثيراً وأن القدماء لم يثبتوا ردوده . وسنرى بشر بن المعتمر يسير على هديه فى هذا الاتجاه . ومثله العطوى الذى نلقاه بأخرة من هذا العصر ، وقد أنشد له القالى قصيدة يرد فيها على هشام بن الحكم الرافضى أحد متكلمى الشيعة الغالين وما كان يزعمه من التشبيه على الله وأنه فى صورة إنسان وله نفس الحواس الخمس ، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً ، وله يقول العطوى فى بعض رَدِّه[4] :

جلَّ رَبُّ الأعراض والأجسامِ عن صفات الأعراض والأجسامِ

---

(١) قمش : آراذل .

(٢) يشير إلى حرفة أبيه برد وأنه كان طياناً يضرب اللبن .

(٣) ذحل : ثأر . لايبيت على حقد : يريد أنه يسارع إلى الأخذ بثأره .

(٤) أمالى القالى ٢/٢٣٦ .

جلَّ ربِّى عن كل ما اكتنفتْه لحَظاتُ الأَبصار والأَوهـام
بَرِئَ اللهُ من هشامٍ وممن قال فى الله مثلَ قول هشامِ
قُلْ لمن قال قوله ورآه خيرَ مسترشَدٍ وخير إمامِ
لمَ أنكرتَ قول من عبد الشَّمْـ سَ وصلَّى للأَنْجُم الأَعلامِ
ما الدليلُ المبِينُ عن حَدَث العا لم أَفْصحْ به لَدَى الأَقوامِ
لا دليلٌ فلا تَرُمْهُ وقد قُلْـ تَ كبعض الأَنام ربُّ الأَنامِ
لم تُرِدْ غير قِدْمَةِ الخَلْق فاقْصِدْ قَصْدَهُ دَعْ مناقَضات الكلامِ

وواضح أن العطوى يرى فى التشبيه على الذات الإلهية تعطيلا للألوهية ، فالله بنصِّ القرآن ليس كمثله شىء وهو منزه عن كل تجسيد وتجسيم ، ولو أشبهته المخلوقات لأصبح العالم قديما مثله ، ولكان هناك قديمان : الله والعالم ، ومن أجل ذلك حارب المعتزلة القائلين بهذا القول من فلاسفة اليونان ومن بعض المتكلمين أمثال هشام حربا عنيفة فالله وحده هو القديم ، أما العالم فحادث ، خلقه الله وأحدثه ، والدلالة على حدوثه وخلقه قائمة فى بنيته وتركيبه .

وكان العطوى ينظم فى أغراض الشعر المختلفة صابغاً كثيراً من معانيه بأصباغ المعتزلة ، ونقصد القدرة على توليد الأفكار واستنباط خبيئاتها ، وفى ذلك يقول بعض القدماء « كان له فن من الشعر لم يُسْبَقْ إليه ، ذهب فيه إلى مذهب أصحاب الكلام ففارق جميع نظرائه وخفَّ شعره على كل لسان ورُوِىَ واستعمله الكتاب واحتذوا معانيه وجعلوه إماما » . وقد أنشد له أبو الفرج فى أغانيه طائفة من الأشعار فى أغراض مختلفة ، وهى تصور كيف كان يطلب الإطراف فى المعنى والخيال من مثل قوله يرثى أحمد بن أبى دؤاد شيخ المعتزلة فى عصره ومقدَّمهم عند المعتصم والواثق[1] :

أَحْنَطتهُ يا نَصْرُ بالكافورِ وزَفَفْتَهُ للمنزل المهجورِ [2]

---

(١) الأغانى ٢٠/٥٨ .
(٢) أحنطته : من الحنوط وهو كل طيب يخلط للميت .

هلا ببعض خصاله حَنَّطته فيَضُوع أفْقُ منازلٍ وقبور[١]

وقوله فى رثائه أيضًا[٢]:

وليس نسيم المسك رَيَّا حَنوطِه ولكنه ذاك الثناءُ المخلَّفُ[٣]

وكان منهوما بالنبيذ والشراب ، وله فى وصف الصبوح وذكر الندامى والمجالس أشعار كثيرة نقع فيها على المعانى النادرة من مثل قوله: [٤]

فكم قالوا تَمنَّ فقلت كأسٌ يطوف بها قضيبٌ من كثيبِ
ونَدْمانٌ تساقطنى حديثاً كلحظ الحبِّ أو غَضِّ الرَّقيب

وعلى هذا النحو كان العطوى يتأتى لمعانيه محاولاً أن يصل إلى كثير من دقائق الأخيلة والأفكار حتى يبهر معاصريه . ولعل من الخير أن نعرض بشىء من التفصيل لثلاثة من شعراء المعتزلة دوت أسماؤهم فى هذا العصر وهم العتابى وبشر بن المعتمر والنظام .

العتَّابى[٥]

هو كلثوم بن عمرو بن أيوب التَّغْلبىّ ، يتصل نسبه بعمرو بن كلثوم أحد أصحاب المعلقات السبع ، وُلد ونشأ فى قَنَّسْرين بالشام ، ثم سكن الرَّقَّة بالموصل ، وتحول عنها إلى بغداد ، واختلف إلى حلقات المتكلمين ، ولم يلبث أن شُغف بالمعتزلة والاعتزال ، كما شُغف بالآداب الفارسية شغفًا أداه إلى تعلم الفهلوية من جهة ، كما أداه إلى الرحلة مراراً إلى خزائن الكتب بمرو وخراسان ، ليتزود منها بكنوز الأدب الفارسى ، ومرَّ بنا فى الفصل الرابع إكبابه على هذه الكتب ونسخه

---

(١) يضوع : يفوح .
(٢) أغانى (طبع الساسى) ٢٠/٥٩ .
(٣) ريا : شذى ورائحة .
(٤) أغانى ٢٠/٥٩ .
(٥) انظر فى العتابى وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص٢٦١ والشعر والشعراء ص٨٣٩ والبيان والتبيين ١١/٥، ١٢٠ ، ٢٢٠ ، ٣/٥٣ ، ٤/٥٦ والحيوان ٣/٦٢ ، ٤٨٣ والأغانى ١٣/١٠٩ والفهرست لابن النديم ص ١٧٥ ومعجم الأدباء ١٧/٢٦ ومروج الذهب للمسعودى ٣/٣٣٧ وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٣٣ ، ٢٦٢ وتاريخ بغداد لطيفور ص ٨٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢/٤٨٨ والفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/١١٩ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢/١٨٦ .

وكاتبا جيد الرسائل حاذقا، وقلما يجتمع هذا لأحد ، وما سمعت كلاما قط لأحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابى . . فإنه كان فحل الشعر جيد الكلام » ويقول أبو الفرج عنه : « شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرّف فى فنون الشعر ومقدّم من شعراء الدولة العباسية » . ويقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتّابى ، وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحذْوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من الشعراء المولّدين كنحو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصارى وأشباههما ، وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع » . ويقول فى موضع آخر من بيانه : « العتابى يذهب شعره فى البديع » .

والجاحظ لا يقصد بالبديع المحسنات المعروفة من الجناس والطباق والتصاوير فحسب ، بل يقصد أيضًا المعانى الطريفة النادرة التى أتاحت للعتابى ثقافته الواسعة اجتلابها وعرضها فى معارض تمتع النفس وترضى العقل والقلب. وأول ما نقف عنده مديحه ، وقد طارت له فيه قصيدة فى الرشيد نظمها حين سخط عليه لثورة الوليد بن طريف التى أشرنا إليها فيما أسلفنا ، وهو يستهلها بذكر الأطلال والنسيب على هذه الشاكلة :

ماذا شجاك بِحُوَّارين من طللٍ ... ودِمْنَةٍ كشفتْ عنها الأعاصيرُ[1]

شجاك حتى ضميرُ القلبِ مشتَرَكٌ ... والعينُ إنسانها بالماءِ مغمور[2]

فى ناظرىّ انقباضٌ عن جفونهما ... وفى الجفون عن الآماق تقصير

لبِسْتَ أَرْدِيَةَ النُّوَّار من طللٍ ... وزِلْتَ أخضرَ تعلوك الأزاهير[3]

وواضح ما فى هذا المطلع من دقة فى التفكير ، فهو يصور شجو نفسه وحزنها حين ألم بالطلل ، ويطيل فى هذا التصوير ، محاولا النفوذ إلى خيال بديع على نحو ما يتضح فى البيت الثالث ، وهو لا يعنى بدقة الفكر والخيال وحدهما بل يعنى أيضًا بدقة الحسّ على نحو ما نرى فى دعائه الرقيق للطلل بأن يظل مكسوًّا

---

(١) حوارين : من قرى حلب . والدمنة : آثار الديار.

(٢) مشترك : مهموم .

(٣) أردية : ثياب .

بالخضرة والأزهار والرياحين ويتحول إلى المديح بمثل قوله فى الرشيد :

مستنبطٌ عزماتِ القلب من فِكَرٍ ما بينهنَّ وبين الله معمورُ
قُمتَّ المدائح إلا أن أنفسنا مستنطَقاتٌ بما تحوى الضَّمائير
ماذا عسى مادحٌ يثنى عليك وقد ناداكفى الوَحْى تقديسٌ وتَطْهيرُ

وهو دائمًا فى مديحه له يمزج بين تصوير حزمه وبصره بالرأى الصائب وحنكته وبين حياطته للدين والرعية وأخذها بالعدل والشفقة والرحمة ، على شاكلة قوله :

إمامٌ له كَفٌّ يضُمُّ بَنَانُها عَصا الدينِ ممنوعاً من البَرْيِ عودُها
وعَيْنٌ محيطٌ بالبريَّة طَرْفُها سواءٌ عليه قُرْبُها وبَعيدُها
وأَصْمَعُ يقظانٌ يبيت مناجياً له فى الحَشَا مستودَعاتٌ يكيدها
سميعٌ إذا ناداه فى قَعْر كُرْبةٍ منادٍ كفتْه دعوةٌ لا يعيدها

ونحس فى هذه الأبيات مدى ما كان يأخذ نفسه به من الأناة والجهد العنيف فى تصوير معانيه وصياغتها وكان يعرف كيف يعرض المعنى فى معارض مختلفة ، يرفده فى ذلك عقله الاعتزالى الخصب الذى لا يزال يثير فى نفسه الخواطر التى تبهر السامعين من مثل قوله فى الرشيد ، معيدا للمعانى السابقة فى هيآت جديدة :

رَعى أمَّةَ الإسلام فهْو إمامها وأدَّى إليها الحقَّ فهْو أمينُها
ويستنتج العَقْماءَ حتى كأنما تغلغل فى حيث استقرَّ جَنينُها[٢]
وما كلُّ موصوفٍ له الحقّ يهتدى ولا كلُّ من أمَّ الصَّوَى يستبينها[٣]
مقيمٌ بمُسْتَنِّ العُلا حيث تلتقى طوارفُ أبكارِ الخطوب وعُونها[٤]

وهو يلاحظ ما يقيم عليه الرشيد حكمه من قواعد الدين الحنيف وما سنه فى حكم الرعية من العدالة وطرق الرشاد ويصور فطنته وحنكته فى حلّ المشاكل

---

(١) أصمع : يقظ القلب فطن حاذق . يكيدها : يدبرها .
(٢) العقماء : المشكلة العسرة . يستنتج : يستولد .
(٣) أم : قصد . الصوى : الأعلام .
(٤) المستن : مكان الاستنان وهو سرعة العدو . الطوارف : الحديثات . العون : جمع عوان ضد البكر .

بالخضرة والأزهار والرياحين ويتحول إلى المديح بمثل قوله فى الرشيد :

مستنبطٌ عزماتِ القلب من فِكَرٍ ما بينهنَّ وبين الله معمورُ
فُتَّ المدائح إلا أن أنفسنا مستنطَقاتٌ بما تحوى الضَّمائير
ماذا عسى مادحٌ يثنى عليك وقد ناداكفى الوَحْى تقديسٌ وتَطْهيرُ

وهو دائمًا فى مديحه له يمزج بين تصوير حزمه وبصره بالرأى الصائب وحنكته وبين حياطته للدين والرعية وأخذها بالعدل والشفقة والرحمة ، على شاكلة قوله :

إمامٌ له كَفٌّ يضُمُّ بَنَانُها عَصا الدينِ ممنوعاً من البَرْيِ عودُها
وعَيْنٌ محيطٌ بالبريَّة طَرْفُها سواءٌ عليه قُرْبُها وبَعيدُها
وأَصْمَعُ يقظانُ يبيت مناجياً له فى الحَشَا مستودَعاتٌ يكيدها
سميعٌ إذا ناداه فى قَعْر كُرْبةٍ منادٍ كفتْه دعوةٌ لا يعيدها

ونحس فى هذه الأبيات مدى ما كان يأخذ نفسه به من الأناة والجهد العنيف فى تصوير معانيه وصياغتها وكان يعرف كيف يعرض المعنى فى معارض مختلفة ، يرفده فى ذلك عقله الاعتزالى الخصب الذى لا يزال يثير فى نفسه الخواطر التى تبهر السامعين من مثل قوله فى الرشيد ، معيدا للمعانى السابقة فى هيآت جديدة :

رَعى أمَّةَ الإسلام فهْو إمامها وأدَّى إليها الحقَّ فهْو أمينُها
ويستنتج العَقْماءَ حتى كأنما تغلغل فى حيث استقرَّ جَنينُها[٢]
وما كلُّ موصوفٍ له الحقّ يهتدى ولا كلُّ من أمَّ الصُّوَى يستبينها[٣]
مقيمٌ بمُسْتَنِّ العُلا حيث تلتقى طوارفُ أبكارِ الخطوب وعُونها[٤]

وهو يلاحظ ما يقيم عليه الرشيد حكمه من قواعد الدين الحنيف وما سنه فى حكم الرعية من العدالة وطرق الرشاد ويصور فطنته وحنكته فى حلّ المشاكل

---

(١) أصمع : يقظ القلب فطن حاذق . يكيدها : يدبرها .
(٢) العقماء : المشكلة العسرة . يستنتج : يستولد .
(٣) أم : قصد . الصوى : الأعلام .
(٤) المستّن : مكان الاستنان وهو سرعة العدو . الطوارف : الحديثات . العون : جمع عوان ضد البكر .

العسرة العقيمة حتى لكأنما يستولدها ما اكتن فى أعماقها وأرحامها من حلول خفية، كما يصور حزمه ونفوذه من الخطوب نفوذ السهم الصائب . وواضح ما يُعْنَى به العتّابى من دقة فى معانيه وطرافة ، ويُرْوَى أنه دخل سرًّا مع المتظلمين إلى الرشيد فى بعض سخطاته عليه ، فأنشده :

أَخِضْنى المُقَامَ الغَمْرَ إن كان غَرَّنى سنَا خُلَّبٍ أو زلَّتِ القدمانِ(١)
أتتركنى جَدْبَ المعيشة مُقْتِرًا وكفَّاك من ماء النَّدَى تَكِفَانِ(٢)
وتجعلنى سَهْمَ المطامع بعد ما بَلَلْتَ يمينى بالنَّدَى ولِسَانى

فأعجب الرشيد قوله ، وأجازه جائزة سنية . وكان جعفر البرمكى أو أبوه يحيى شفع له عند الرشيد فى موجدة له أخرى عليه ، كما أشرنا إلى ذلك آنفا ، فقال يمدحه :

ما زلتُ فى غَمرات الموت مطَّرَحاً قد ضاق عنى فَسِيحُ الأرض من حِيَلى(٣)
ولم تزل دائباً تَسْعَى بلطفك لى حتى اختلست حياتى من يَدَىْ أجلى

وهذا البحث عن المعانى النادرة أشاع فى شعر العتابى ظاهرة لم تكن مألوفة هى قِصَرُ المدائح وغير المدائح مما يلم به من أغراض الشعر حتى لتصبح بيتين أو ثلاثة فى كثير من الأحيان ، وكأنما يتشبه فى ذلك بالأمثال الفارسية القصيرة التى كان يعكف عليها والتى يمثلها خير تمثيل كتاب الأدب الصغير لابن المقفع ، ومما يصور ذلك عنده أجمل تصوير ما يُرْوَى من أنه دخل على عبد الله بن طاهر يوما فأنشده مادحًا :

حُسْنُ ظَنِّى وحُسْنُ ما عوَّد اللَّـ ـهُ سواى منك الغداةَ أتى بى
أىُّ شىء يكونُ أحسنَ من حُسْـ ـنِ يقينٍ حَدَا إليك رِكابى

ثم دخل عليه من الغد، فأنشده البيتين التاليين اللذين أنشدناهما فى الفصل السادس :

---

(١) المقام الغمر : المقام الشديد . سنا خلب : ضوء البرق الذى لا يعقبه مطر.
(٢) مقترا : ضيق الرزق . النـدى : الجود . تكفان : تهطلان وتسيلان .
(٣) غمرات : شدائد .

ودُّك يكفينيك فى حـاجتى ورُؤيتى كافيـةٌ عن سُؤالْ
وكيف أخشى الفقر ما عشتَ لى وإنما كفَّاك لى بيت مال

ثم دخل فى اليوم الثالث ، فأنشده :

بَهجاتُ الثيابِ يُخْلِقها الدَّهْـ رُ وثوبُ الثناء غَضٌّ جديدُ
فاكْسُنى ما يَبِيدُ أَصْلَحَكَ اللـ ـهُ فيكسوك اللهُ ما لا يبِيدُ

وواضح أنه حول قصيدة المديح إلى بيتين قصيرين ، يحملان معنى طريفا ، وهو معنى لا يصل إليه إلا بعد التدبر وبعد طول الروية وبعد النظر وطول التفكير ، بل بعد التوقف وطول التنقيب . وعلى نحو ما يلقانا ذلك فى مديحه يلقانا فى عتابه من مثل قوله :

رَحَلَ الرَّجاءُ إليك مُغْتَرِباً حُشِدتْ عليه نوائبُ الدَّهْرِ
ردَّتْ إليك ندامتى أملى وثَنَى إليك عِنانَه شُكْرى
وجعلتُ عَتْبَكَ عَتْبَ موعظةٍ ورجاءَ عفوك مُنْتَهَى عُذْرِى

وله غزليات تَطْبَع بنفس الطوابع العقلية والخيالية ، فهو ما يزال يحاول فيها استنباط المعانى والصور الدقيقة على شاكلة قوله :

رُسُلُ الضمير إليك تَتْرَى بالشوق ظالعةً وحَسْرَى(١)
ما جفَّ للعينين بَعْـ ـدك يا قريرَ العَيْن مَجْرى
إن الصبابة لم تَدَعْ منى سوى عظمٍ مُبَرَّى(٢)
ومدامعٍ عَبْرَى على كبدٍ عليك الدَّهْرَ حَرَّى(٣)

وأدَّاه طول نظره وفحصه للمعانى إلى أن يجردها ويجسمها أحيانا ، وأحيانا أخرى يتعمق فيها ويتغلغل إلى لبها ، مستخرجاً بعض الصور أو بعض الحكم ، من مثل قوله مجسداً لشكره :

---

(١) ظالعة : من الظلع وهو العرج من كثرة السير . حسرى : متعبة .

(٢) مبرى : مهزول .

(٣) حرى : محترقة .

فلو كان للشكر شَخصٌ يَبينُ إذا ما تأمَّله الناظرُ
لمثَّلْتُهُ لك حتى تراه لتعلم أنى امرؤٌ شاكرُ

وقوله فى ملامة الأصدقاء وتلقيها بالقبول الحسن :

لومٌ يُعيذك من سوء تُقارفهُ أبقى لِعِرْضك من قولٍ يُداجيكا[1]
وقد رمى بك فى تَيْهاء مهلكةٍ من بات يكتمك العيبَ الذى فيكا[2]

وله أشعار يتناول فيها الأخلاق والطباع ، محللا لها تحليلا بديعًا ، من ذلك تصويره لمن اتبع هداه ، فعدل عن محجّة الخلق الحميد إلى مسارب الخلق الذميم ، وإنه ليعد ذلك كفراناً لنعمة الله الذى وهب الإنسان من العقل ما يميز به الخبيث من الطيب ، والضار من النافع ، فإذا هو يستجيب لهواه ودواعى نفسه ، ولو أنه فطمها وكبح جماحها لاستتم شكره لأنعم ربه ، ولكن أنّى له وفطام النفس عسير ، يقول :

وكم نعمةٍ آتاكها الله جَزْلَةٍ مبرّأةٍ من كلِّ خُلْقٍ يَذيمُها[3]
فسَلَّطْتَ أخلاقاً عليها ذميمةً تعاورْنها حتى تفرّى أديمُها[4]
وكنت امرءًا لوشئتَ أن تبلغَ المَدَى بلغتَ بأدنى نعمةٍ تستديمها
ولكنْ فِطامُ النفس أعْسَرُ محملا من الصخرةِ الصَّمَّاء حين ترومها

وعلى هذا النحو كان العتابى لا يزال يلذ عقول سامعيه وقلوبهم بما يورد عليهم من نوادر الأخيلة وطرائف المعانى محتالا لذلك متلطفًا له بكل ما ادخره عقله واقتناه من بيئة المعتزلة وكنوزها الفكرية الغنية ، وقد ظل الناس يفتنون بشعره ، وهو يعرض عليهم مبتكراته فى معانيه حتّى انتقل إلى جوار ربه فى سنة ثمان ومائتين .

(١) تقارفه : ترتكبه . يداجيك : ينافقك .
(٢) تيهاء : فلاة مضلة .
(٣) يذيمها : يعيبها .
(٤) تفرى : تتقطع .

بشر [1] بن المعتمر

شيخ معتزلة بغداد ورئيسهم ، يقال إنه كوفى الأصل ولعله تحوّل منها أولا إلى البصرة موطن المعتزلة ، ثم استوطن بغداد ، وقد اتخذ النخاسة حرفة له ، مثله فى ذلك مثل محمود الوراق ، وكان أيضًا مثله زهداً ونسكاً وعبادة . ولا نعرف بالضبط متى نزل بغداد ، غير أننا نجد اسمه يلمع فيها منذ عصر الرشيد والبرامكة وقد توثقت الصلة بينه وبين الأخيرين وخاصة منهم الفضل بن يحيى البرمكى ، وربما كان السبب الحقيقى فى توثق هذه الصلة ما عرف عن بشر من نزعة شيعية ، وكان البرامكة يتشيعون سرًّا ، ففسحوا له فى مجالسهم ، ونصّ كثيرون على هذه النزعة ، يقول النوبختى إنه كان يوافق الشيعة فى الحكم على علىّ بأنه كان مصيباً فى حربه لطلحة والزبير ومعاوية وأن جميع من قاتله كان على خطأ ، وأيضًا كان مصيبًا فى قبوله التحكيم . ويقول ابن أبى الحديد : « كان بشر بن المعتمر من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل على عليه السلام (أى على أبى بكر وعمر) ويقول كان أشجعهم وأسخاهم ، ومنه سرى القول بالتفضيل إلى أصحابنا (من المعتزلة) البغداديين قاطبة وفى كثير من البصريين » . وقد روى له ابن المرتضى أبياتًا من أرجوزة يقول فى بعض شطورها « نبرأ من عمرو ومن معاوية » خصمى على فى صفّين ، فتشيعه لا مرية فيه ولا شك يعتريه .

وقد عرضنا فى الفصل الرابع للنحلة الاعتزالية التى تكونت حول آرائه ، والتى سميت البشرية نسبة إليه وذكرنا أن من أهم الأصول التى كان يعتنقها نظرية التولد ، وكان يذهب فيها إلى أن كل ما يتولد من أفعالنا فينا أوفى غيرنا فهو فعلنا . وذكرنا أيضًا أنه كان ينكر فكرة وجوب الأصلح على الله ، إذ لا نهاية لطبقات الأصلح عند الذات العلية ، ومن أجل ذلك يكون الذى يجب عليه

---

(١) انظر فى بشر وأخباره وأشعاره الحيوان ٤/٢٣٩ و٦/٦٢ ، ٩٠ ، ٢٨٤ وما بعدها و ٤٠٥ ، ٤٥٥ والبيان والتبيين ١/١٣٥ وما بعدها وأمالى المرتضى ١/١٨٦ ولسان الميزان ٢/٣٣ وفهرس الانتصار لابن الخياط المعتزلى والأنساب للسمعانى فى البشرى وفرق الشيعة للنوبختى ص ٣٥ ، ٣٧ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (طبعة الحلبى) ٣/٣١٦ والملل والنحل للشهرستانى ص ٤٤ والمواقف للإيجى (طبع بولاق) ص ٦٢٢ والفرق بين الفرق ١٤١ وضحى الإسلام ٣/١٤١ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٣١ .

حقًّا هو تمكين العبد بما أودع فيه من القدرة والاستطاعة . وكان ينصر القياس العقلى نصرة شديدة ، كما كان يجل العقل إجلالا بعيداً حتى ليرفعه إلى مرتبة مقدسة ، وقد مرَّت بنا فى الفصل الرابع أبياته التى يشيد فيها به إشادة بالغة ، لما أودع الله فيه من المعرفة الفطرية التى تجعل الإنسان يميز الشر من الخير، ويدرك الحسن فيعتنقه والقبيح فيتجنبه ، ويقول لولاه لذهب الإدراك والتمييز ، بل لفقد الإنسان جوهر إنسانيته . وله مصنفات مختلفة تتصل باعتزاله سجلها ابن النديم فى فهرسته .

وكان حسن الجدال قوى الحجة ، وهو يُعَدّ فى الذروة من فصحاء المتكلمين وبلغائهم ، وقد جعله الجاحظ أكثر المعتزلة رواية للشعر ، وروى عنه فى بيانه صحيفة طويلة فى البلاغة ، تجعله واضع أصولها الأولى فى صورتها الدقيقة ، وقد حللناها فى كتابنا « البلاغة [1] : تطور وتاريخ » . وهى تشهد له ببصره النافذ فى معرفة طبقات الكلام والملاءمة بينها وبين طبقات السامعين .

ولم يكن يروى الشعر فحسب ، بل كان أيضًا بارعاً فى نظمه ، غير أنه لم ينظمه فى الأغراض الغنائية التى تعود الشعراء أن ينظموا فيها ، بل نظمه فى الاتجاه التعليمى الذى كان أبان بن عبد الحميد قد برع فيه ، غير أنه لم يتجه به وجهة من القصص والتاريخ والفقه والمنطق ، وإنما اتجه به إلى الرد على أهل المقالات والنحل من خصوم المعتزلة ، كما اتجه به إلى ذكر عجائب الله فى صنوف خَلْقه ، مما يمكن أن يدخل فى التاريخ الطبيعى ، ويذكر الجاحظ أنه لم ير أحدا أقوى منه على المخمَّس والمزدوج وأنه يفوق أبانا . وليس بين أيدينا شىء من مخمساته ، أما مزدوجاته فيذكر ابن المرتضى أن له مزدوجة ردَّ فيها على جميع المخالفين للمعتزلة بلغت أربعين ألف بيت ، وقد اقتبس منها قطعة أعلن فيها براءته من معاوية كما أسلفنا وكذلك ابن العاص . وأكبر الظن أن القطعة التى أنشدها له صاحب الانتصار فى التبرؤ من الجهمية وصاحبهم جَهَم مقتبسة هى الأخرى من تلك الأرجوزة وفيها يقول :

ننفيهمُ عنا ولسنا منهمُ ولا همُ منا ولا نرضاهمُ

---

(١) انظر كتاب البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٤١ وما بعدها .

إمامُهم جَهْمٌ وما لجهْم وصَحْبِ عمرو ذى التقى والعلم

ومعروف أن جهما كان يؤمن بالجبر وينفى استطاعة الإنسان وحرية إرادته مما كان يعتنقه المعتزلة وأساتذتهم أمثال عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ، وروى الجاحظ فى الجزء الرابع من حيوانه مقطوعة من إحدى أراجيزه ، وربما كانت هى الأخرى من الأرجوزة السالفة ، وكذلك ما روى فى الجزء السادس من تفضيله لعلى بن أبى طالب على الخوارج ، إذ يقول :

ما كان فى أسلافهم أبو الحَسنْ ولا ابنُ عبَّاسٍ ولا أهلُ السُّنَنْ
غُرٌّ مصابيحُ الدُّجى مَناجِبُ أولئك الأعلام لا الأعاربُ
كمثل حُرْقوص ومنْ حرقوصُ فقعةُ قاعٍ حولها قَصِيصُ (١)
ليس من الحَنْظل يُشْتار العَسلْ ولا من البحور يُصْطاد الوَرَل (٢)
هيهات ما سافلةٌ كعالِيَهْ ما معدنُ الحكمة أهلُ الباديه

وروى له الجاحظ فى الحيوان قصيدتين طويلتين قدم لهما بقوله : « أول ما نبدأ قبل ذكر الحشرات وأصناف الحيوان والوحش بشعر بشر بن المعتمر فإن له فى هذا الباب قصيدتين قد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفرائد ، ونبَّه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة والموعظة البليغة . . وإذا قسمنا ما عندنا فى هذه الأصناف على بيوت هذين الشعرين وقع ذكرهما مصنَّفا فيصير حينئذ آنق فى الأسماع وأشدَّ فى الحفظ » . وبشر يستهل القصيدة الأولى بحديثه عن طباع الإنسان وما ركب فيه من الطمع الذى يدفع الناس إلى أن يتوائبوا بعضهم على بعض توائب الذئاب ، ويفيض فى وصف الحيوان والحشرات وبعض الطير وبيان طباعها وعجائب خلقها ، حتى إذا بلغ ما أراد من ذلك تحول إلى إباضية الخوارج ورافضة الشيعة ممن يؤمنون بكتاب الجفر ، وهو كتاب يزعمون أنه عند أئمتهم فيه كل أصناف العلم وكل ما يكون إلى يوم القيامة ، وسلك مع الرافضة

---

(١) حرقوص : من زعماء الخوارج لعهد على . القصيص : شجر تنبت فى أصله الكمأة وهى الفقع . والقاع : الأرض المستوية ، ويضرب الفقع مثلا للرجل الذليل لأن الإبل تدوسه بأرجلها.

(٢) يشتار : يستخرج . الورل : دابة صحراوية كالضب .

والإباضية الحشويَّة ، وهو اسم كان يطلقه المعتزلة على خصومهم من المجسمة والمشبهة ومن كانوا لا يؤولون آيات التشبيه فى القرآن وإن قالوا إن الله لا يشبه شيئًا من المخلوقات ، وفى ذلك يقول :

لستُ إباضِيًّا غَبيًّا ولا ... كرافضىٍّ غَرَّه الجَفْرُ
كما يغرُّ الآلُ فى سَبْسَبٍ ... سَفْرًا فأَوْدَى عنده السَّفْرُ(١)
لسنا من الحَشْو الجفاة الأُولى ... عابوا الذى عابوا ولم يدروا
لا تَنجع الحكمةُ فيهمْ كما ... يَنْبُو عن الجَرْوَلة القَطْرُ(٢)
أُولئك الدَّاءُ العُضَال الذى ... أَعيا لديه الصَّابُ والمَقْرُ(٣)

وفى هجومه على الشيعة القائلين بكتاب الجفر ما يدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن يعتنق مذهب الإمامية كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل السادس، وقد استظهرنا هناك أنه ربما كان زيدى الهوى . وهو فى القصيدة الثانية يتحدث أيضًا عن غرائب الخلق فى أوابد الوحش والحشرات والطير السابح فى الهواء، مستنبطًا كثيراً من العظات ، ومنوها بالعقل وساطع نوره الذى نكتشف به مثل هذه العجائب والعبر ونفصل بين الخير والشر والنافع والضار ، ويعرض فى أثناء ذلك لأهل المقالات والنحل من غير المعتزلة ، فيقول :

قد غمَر التقليدُ أَحْلامهم ... فناصبوا القيَّاس ذا السَّبْرِ

فهو يأخذ عليهم أنهم يلغون عقولهم وأنهم لا يحكمون المنطق والقياس العقلى السديد الذى به تقاس الأشياء ويُسْبَر ويُعْرَف غورها ومقدار ما فيها من الخطأ والصواب . وعلى هذا النحو ظل بشر مشغولا فى شعره التعليمى بالرد على خصوم المعتزلة وبيان عجائب الخلق الربانى حتّى وافاه القدر فى سنة عشر ومائتين .

(١) الآل : السراب . السبسب : الفلاة . السفر : جماعة المسافرين .
(٢) الجرولة : الصخرة الملساء . ينبو : يزل ويسقط .
(٣) الصاب والمقر : نباتان شديدا الحرارة

النظام[1]

هو إبراهيم بن سيار بن هانىء ، وُلد ونشأ بالبصرة ، وكان يحترف نظم الخرز فى سوقها لأول حياته فلُقِّب بالنظَّام ، والمظنون أن ولادته كانت حول سنة ١٦٠ للهجرة فقد رُوى أنه تتلمذ للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة وربما كانت ولادته تسبق التاريخ الذى ظنناه ، إذ نجده يناظر ويحاور أهل الكلام فى مجالس البرامكة ، ومعروف أنهم نكبوا سنة ١٨٧ فلا بد أن يكون قد نضج ولمع اسمه قبل هذا التاريخ مما يؤكد أن ولادته ربما سبقت سنة ١٦٠ . وهو ابن أخت أبى الهذيل العلاف شيخ المعتزلة بالبصرة ورئيسهم بعد عمرو بن عبيد ، ولعل ذلك ما جعله يشغف بالاعتزال منذ نشأته ويظهر أن خاله عُنِى به وبتثقيفه عناية كبيرة ، وهى عناية صادفت فيه عقلا خصبًا وذكاء نادراً . وقد مضى يستوعب كل ما يمكن من كتب الاعتزال والفلسفة والتفسير والحديث والفقه والكيمياء والفلك وعلوم اللغة وكتب الأشعار والأدب وكتب الملل والنحل الإسلامية وكان خاله بارعا فى المناظرة وقطع الخصوم بالحجج الساطعة ، فتلقن ذلك عنه ، بل لعله بذه فيه ، وقد مرَّ بنا فى ترجمتنا لصالح بن عبد القدوس كيف تعرَّض له وهو حدث ، فإذا هو يلقمه بمحاورته له حجراً ، فلا يستطيع أن ينبس ببنت شفة ، وكان كثيراً ما يظفر بخاله . وقد وقف نفسه على مناظرة الدهريين وأصحاب الملل والنحل المختلفة فى عصره ، وطارت شهرته فى هذا الباب ، لإفحامه دائمًا لهم وعلوه عليهم بالأدلة الناصعة والبراهين القاطعة ، حتى ليقول الجاحظ فى حيوانه : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النِّحل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم

---

(١) انظر فى النظام وأخباره وأشعاره فهارس البيان والتبيين والحيوان للجاحظ وأمالى المرتضى ١ / ١٨٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٦ / ٩٧ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٢٧ وابن المعتز ص ٢٧١ وفهارس الانتصار لابن الخياط ومقالات الإسلاميين للأشعرى ولسان الميزان ١ / ٦٧ وروضات الجنات للخوانسارى ص ٤٢ والنجوم الزاهرة ٢ / ٢٣٤ والملل والنحل للشهرستانى ص ٣٧ والفرق بين الفرق ١١٣ والمواقف ٦٢١ وانظر مروج الذهب للمسعودى ٣ / ٢٨٧ وسرح العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربى) ص ٢٢٦ . وضحى الإسلام ٣ / ١٠٦ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور ص ٥٩ .

وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سبلا وفتق لهم أمورا واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة[1] » . وقد كان كثير التردد على بغداد منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كانت سنة ٢٢٠ اختارها دار مقام له ، وعقد لنفسه بمسجدها الكبير حلقة للمحاضرة قرر فيها مذهبه الاعتزالى الذى نُسب إليه ، فتبعه — كما يقول ابن تغرى بردى — خلق كثير ، مما جعل اسمه يشيع فى العامة ويدور على كل لسان . ومرّت بنا فى الفصل الثالث كلمة موجزة عن نظريته الاعتزالية ، وهى نظرية كانت تقوم على أصول المعتزلة الخمسة التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع وقد مزج فى قوة بين كلام الفلسفة وأفكار المعتزلة ومال فى آرائه إلى كلام الطبيعيين من الفلاسفة خاصة وانفرد من نظرائه بكثير من الآراء كقوله بأن الله لا يقدر على فعل الشر وإنه إنما يفعل الأصلح لعباده ، وقوله بنفى الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزأ ، وقوله إن الله خلق الكائنات دفعة واحدة معادن ونباتاً وحيوانا وإنسانا ، غير أن الله أكمن بعضها فى بعض ، فآدم لا يتقدم خلقه على خلق أولاده ، وهو ما ما يعرف عنده بنظرية الكمون ، ومن ذلك قوله إن الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت . وكان يُعلى سلطان العقل إعلاء شديداً ، ولعل ذلك هو الذى أدّاه إلى إنكار حجية الإجماع والقياس وكأنه خشى فى الأخير إلى نقص الأصل الذى يقاس عليه ، ونرى تلميذه الجاحظ المفتون به يعيبه هو نفسه بأنه كان قليل التثبت من صحة المقدمات فى أقيسته ، وهو دائم الإشادة بفطنته وغوصه على الدقائق ولطف مداخله إلى أعماق الحقائق .

وله شعر كثير يدور فى كتب التراجم ، وهو مطبوع بطوابع المتكلمين والمعتزلة منهم خاصة ، إذ نراه يمزجه باصطلاحاتهم نافذا إلى أغوار المعانى ، متصرفاً فيها تصرف الحاذق الفطن ، وملائما بينها إلى أبعد حدود الملاءمة يعينه فى ذلك حسٌّ دقيق مرهف وشعور رقيق حاد من مثل قوله :

وشادنٍ ينطقُ بالظَّرْفِ يَقْصُرُ عنه منتهى الوصفِ

---

(١) الحيوان ٤/٢٠٦ .

رقَّ فلو بُزَّتْ سرابيلُهُ عُلِّقه الجَوُّ من اللّطْفِ[١]
يجرحه اللَّحْظُ بتكرارِهِ ويشتكى الإيماءَ بالطَّرْفِ

وكلمة اللطف فى الأبيات لا تفهم بدقة إلا إذا عرفنا أن النظام كان يرى آن روح الإنسان جسم لطيف وما الجسد إلا آلتها وما الإنسان إلا الجسم اللطيف الذى يحتويه . وفى البيت الأخير مبالغة واضحة يستتم بها مبالغة البيت الذى يسبقه وقد عاد إلى توضيح هذه المبالغة ودعم صورتها ، فقال :

توهَّمه طَرْفى فآلم خَدَّهُ فكان مكان الوهم من نظرى أثْرُ
وصافحه قلبى فآلَمَ كفَّه فمن صَفْح قلبى فى أنامله عَقْرُ[٢]
ومرّ بقلبى خاطرًا فَجَرَحْتُهُ ولم أرَ خَلْقًا قطُّ يجرحه الفكْرُ
يمرُّ فمن لينٍ وحُسْنِ تعطُّفٍ يقال به سُكْرٌ وليس به سُكْرُ

وهو وهم بعيد لا يقع فى عقل شخص إلا أن يكون من المعتزلة الذين يبعدون فى تصور الأشياء ، بل إلا أن يكون من عقل النظام الذى كان يؤمن بأن الأعراض كامنة فى الجوهر وأن حركات الإنسان كامنة فى نفسه وأن حركات النفس أجسام مستترة ، وبذلك نفذ إلى هذا التجسيم الغريب فى الأبيات . ويستلهم رأيه فى أن النور سمائى عُلْوِى ، يعلو فوق الأشياء ولا يعلو شيء عليه ، فيقول :

أُفرِغَ من نور سمائىٍّ مصوَّرٌ فى جسم إنْسِىٍّ
وافتقر الحسنُ إلى حُسْنه فجلَّ عن تحديد كيْفىٍّ
أبدعه الخالقُ واختارَهُ من مازج الأنوار عُلْوِىٍّ
فكلُّ من أغرق فى وصفه أصبح منسوباً إلى العِىِّ

وتختلط فى الأبيات فكرته عن النور بفكرته عن الأجسام وأنها أعراض متجمعة . ويتضح فيها لحن المعتزلة أو لحنه هو إذ يتحدث عن الكيف وتحديده

---

(١) بزت : نضيت وخلعت . (٢) العقر : الجرح .

أو بعبارة أخرى عن العرض ، وهو عنده جسم . وبذلك كان يعرف كيف يتحول بالغزل إلى ضروب من الوهم المسرف فى الخيال ، وكذلك كان يصنع بكل ما يمسه عقله ووجدانه من أغراض الشعر كقوله يصف احتساءه للخمر من بعض الدِّنان :

ما زلت آخذ روح الزِّقِّ فى لُطُفٍ وأستبيح دَمًا من غير مجروح
حتى انثنيتُ ولى روحان فى جسدى والزِّقُّ مُطَّرَحٌ جسمٌ بلا روح

وهو هنا أيضًا ينظم بعقله الاعتزالى وما كان يذهب إليه من أن الروح جسم لطيف مشابك للبدن بأجزائه تشابك المائية للورد ، وهى صاحبة القوة والاستطاعة والحياة والمشيئة . وله فى تلميذه الجاحظ عمرو بن بحر الذى كان يبادله إعجابا بإعجاب وودًّا بود :

حبى لعمرو جوهرٌ ثابتٌ وحبُّه لى عَرَضٌ زائلُ
به جهاتى الستُّ مشغولةٌ وهْو إلى غيرى بها مائِلُ

وواضح تشبثه بلغة المتكلمين وآرائهم فى الجوهر والعرض والجهات الست . ولم يكن هناك غرض ينظم فيه إلا ويُدخل فيه لغة الاعتزال وما يدفع إليه من التجريد البعيد الذى يرفع الإنسان من عالم الحس إلى عالم الوهم والخيال كقوله يمدح الأمين :

ألا ياخيرَ مَنْ رأت العيون نظيرُك لا يُحَسُّ ولا يكونُ
وفضلُك لا يُحَدُّ ولا يجارَى ولا تَحْوِى حيازَته الظنونُ
خُلقتَ بلا مشاكلةٍ لشىءٍ فأنت الفَوْقُ والثقلان دون
كأَن الملك لم يك قبلُ شيئاً إلى أن قام بالمُلْك الأَمين

وهى مبالغة مسرفة ، وكأن النظام كان أحد من ثبّتوا مثل هذه المبالغة فى المديح ، وهى مبالغة نفذت إليه من إغراقه فى الوهم واستيحائه لغة المتكلمين . وقد

اختلف القدماء فى السنة التى توفى فيها ، فقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين وقيل بل سنة إحدى وثلاثين ، وأكبر الظن أن حياته لم تمتد إلى السنة الأخيرة.

٥

شعراء النزعات الشعبية

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العباسى كان يصدر فى جمهوره عن روح الشعب ، فقد كانت كثرة الشعراء من الطبقة العامة ، وكانوا يحملون فى صدورهم أحاسيسها ومشاعرها وإذا كان بدا فى مديحهم للخلفاء والوزراء أنهم ينفصلون عنها فإنه انفصال فى الظاهر ، إذ كانوا ما يزالون يضعون نصب أعينهم مثالية الحاكم التى تتطلبها الأمة والتى رسمها لها الدين الحنيف . وكانوا فى جوانب من هذا المديح ونقصد مديح القواد المظفرين يعبرون عن الحماسة المشتعلة فى صدور الشباب للقضاء على أعدائهم من البيزنطيين وغير البيزنطيين . فحتى المديح لم يبعد عن روح الشعب ، وكان الهجاء يصدر فى وضوح عن هذه الروح ، إذ مثل الشعراء فيه الخصال السيئة التى ينبغى أن يتطهر منها المجتمع ، سواء فى الأفراد العاديين أو فى الحكام ، ولعل ذلك هو الذى كان يشيعه على جميع الألسنة . وخذ الصورتين الأساسيتين للمجتمع صورة الترف وما يطوى فيه من مجون وصورة الشظف وعيشة الكفاف وما يطوى فيها من زهد فستجدهما مجسمتين أقوى ما يكون من تجسيم ، فحياة الحانات والقيان والأديرة وكل ما فى المجتمع من لهو ومواسم للهو ، ونقصد الأعياد الإسلامية والمسيحية والمجوسية ، كل ذلك مصور فى شعر الشعراء ، وبالمثل حياة الزهد والتقوى والعمل الصالح وكانت أكثر شيوعًا من حياة اللهو والمجون ، مما جعل أشعار الزهد تجرى على كل لسان ، وفى الأغانى خبر يصور ذلك أدق تصوير ، إذ يروى أن الملاحين فى دجلة كانوا يتغنون فى نزهة للرشيد بقطعة زاهدة لأبى العتاهية تمثلنا ببعض أبياتها فى غير هذا الموضع وفيها يقول[1] :

---

(١) أغانى ٤/١٠٣ وما بعدها .

سيصيرُ المرءُ يومًا جَسَدًا ما فيه روحُ
كلنا فى غَفْلَةٍ والـ ـموتُ يغدو ويَروحُ
لتموتنَّ وإن عُمِّـ ـرْتَ ما عُمِّر نُوحُ

ومرت بنا فى ترجمة أبى العتاهية قطعة يشكو فيها لبعض الخلفاء من ارتفاع الأسعار ، وهو يعبر فيها عما كانت تعيش فيه طبقات الشعب الدنيا من ضنك وبؤس ، وكانت الأموال حينئذ موزعة توزيعًا غير عادل ، فالخلفاء والوزراء وحواشيهما يعيشون فى الحلية والزينة وكل ما يمكن من أسباب الترف ووسائل النعيم ، ويمدون مَنْ حولهم ومن يحفون بهم من المغنين والشعراء والعلماء والأتباع بكثير من هذه الوسائل والأسباب ، ويُثْرى بعض التجار ثراء فاحشًا . وتجثم فى البؤس والمسغبة كثرة الشعب التى كانت لاتجد يداً تمتد إليها وتخمد نار الفقر والضنك المشتعلة بين طبقاتها ولا من يبرد جوانحها ، ويطعم الجائع فيها ويكسو العارى ويسقى الظمآن . وتلقانا أحاسيس هذه الطبقات التعسة مصورة عند شعراء الكدية الذين كانوا يشبهون طوائف الأدباتية التى كانت تنبتُ عندنا لأواخر القرن الماضى فى المواسم والموالد والاحتفالات العامة ، ومن خير من يمثلهم أبو فرعون الساسى ، وقد أنشدنا له قطعة يصور فيها بؤسه وبؤس أولاده فى الفصل الرابع وكيف يعيشون عراة جائعين ، ولا من مشفق ولا رحيم ، وله يصور بؤسه وفقره[1] :

ليس إغلاقى لبابى أنَّ لى فيه ما أخشى عليه السَّرَقَا
إنما أُغلقه كى لا يرى سوءَ حالى مَن يجوب الطُّرُقا
منزلٌ أوطنه الفقرُ فلو دخل السارقُ فيه سُرِقا

ومن الشعراء الذين عاشوا فى ضنك وحرمان أبو المخفَّف وكان فى أيام المأمون ، وكان يدور فى بغداد يسأل الناس رغيفًا أو كسرة خبز ، وله أشعار مختلفة فى وصف الرغيف وكيف كان كلّ همه من الحياة وهم أمثاله من البؤساء الذين يعيشون على الكِسَر اليابسة يتبلَّغون بها ، وهو لذلك يجعله موضع شعره من مثل قوله[2] :

---

(١) ابن المعتز ص ٣٧٧ .
(٢) كتاب الورقة لابن الجراح ص ١١٥

دَعْ عنك رَسْمَ الدِّيارِ   ودَعْ صِفاتِ القِفارِ
وعَدِّ عن ذكر قومٍ   قد أكثروا فى العُقـــار[١]
ودع صفات الزنانيـ   ـر فى خصور العذارِى[٢]
وصِفْ رغيفاً سَرِيًّا   حكتْه شمسُ النهارِ
أو صورةُ البدر لما اسْـ   ـتتمَّ فى الاستدارِ
فليس تَحْسن إلا   فى وصفه أشعارى
وذاك أنى قديمـــاً   خلعت فيه عِذارى

فهو إنما يتدلّه فى الرغيف ويمتلىء به قلبه المحروم حبا وصبابة . وكان وراءه كثيرون متعففون لا يمدون أيديهم للسؤال ، وربما فقدوا حتى الرغيف ولم يجدوه . ولعل شاعراً لم يصف مشاعر هذه الطبقات البائسة على نحو ما وصفها أبو الشمقمق ولذلك كان ينبغى أن نقف عنده قليلا .

أبو الشمقمق[٣]

هو مروان بن محمد بصرى المنشأ والمربى ، خراسانى الأصل ، من موالى الأمويين ، ومعنى الشمقمق الطويل ، ويقال إنه كان قبيح المنظر وأضاف إلى قبح شكله نخبث لسانه ، فتحاماه الناس وازوروا عنه ، فلم يفتحوا له أبوابهم إلا قليلا ، وسرعان ما كان الباب الذى يفتح فى وجهه يُغْلَقُ من دونه ، فعاش فقيراً محروما إلا من بعض ما كان يسقط إليه من قائد أو أمير أو من بعض زملائه الشعراء ، فى الحين الطويل بعد الحين . وقدم بغداد فى أيام الرشيد والبرامكة غير أن أبوابهما لم تفتح له ، ولعل ذلك ماجعله يهجو الفضل بن يحيى

---

(١) العقار : الخمر.

(٢) الزنانير : جمع زنار وهو خيط كانت تلفه الجوارى على أوساطهن .

(٣) انظر فى كتاب أبى الشمقمق وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ١٢٦ وتاريخ بغداد ١٣/١٤٦ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٩٦ وابن خلكان فى ترجمة مزيد بن يزيد وكتاب الورقة ص٦٣ والعقد الفريد ٣/٣٥ ، ٦/٢١٥ والحيوان للجاحظ (انظر الفهرست) وكتاب البغال للجاحظ والأغانى فى ترجمة بشار بالجزء الثالث والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٨٩ والكامل للمبرد ص ٤٣١ ، ٤٥٩ .

obeikandi.com

البرمكى كما هجا منصور بن زياد كاتب الرشيد . وممن فتحوا له أبوابهم حينئذ يزيد بن مزيد الشيبانى قائد الرشيد المشهور ممدوح مسلم بن الوليد ، ومالك بن على الخزاعى أحد رجال الدولة البارزين ومحمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر ، ولعلهم خشوا معرة لسانه . ونراه يولى وجهه نحو بعض بلدان فارس يمدح عمالها ، ويقصد أبا دهمان حين ولاه يحيى بن خالد البرمكى سابور ، فيحسن إليه ويمدحه ببعض شعره ، ويقصد جميل بن محفوظ والى أرّجان ، فيلقاه لقاء سيئًا ، ويتولاه بهجاء مرير ، ويقصد الأهواز حيث كان يتولى عمر ابن مساور الكاتب بعض أعمالها ، ويُعرض عنه ، فيصب عليه شواظا من هجائه ويعود إلى بغداد كسيراً ، فلا يجد من يقبل عليه حتى من الشعراء رفاقه ، ويسلقهم بلسانه ، فيعطونه النزر القليل الذى لا يكاد يسد رمقه . ويحس أنه يعيش مضيعا ، ويزيده ضياعا أنه لم يكن فيه ما يتنافس الناس بسببه فى اصطحابه ومنادمته إذ كانت العيون تقتحمه كما أسلفنا ، وكانت فيه خشونة وجفوة ، مع نزق وطول لسان وتعجل فى اللوم والهجاء ، فساءت حاله واشتد ضيقاً وبرماً بالناس ، وعاش يتجرع الفاقة والبؤس حتى قالوا إنه كان يلزم بيته فى أطمار بالية وثياب خلقة متوارياً عن الناس إلا من أنس إليه .

وأشعاره تسودها روح شعبية قوية حتى فى المديح ، فإننا نجده لا يعنى فيه بالجزالة والرصانة التى كانت تشيع حينئذ فى شعر المديح ، وأيضًا فإنه لا يعنى بمعانيه وأخيلته ، وكأنه ينظمه عفو الخاطر ، غير متأن ولا متكلف . وإذا كان مديحه يسقط عن مديح نظرائه فإن أهاجيه لا تقل عن أهاجيهم إقذاعاً ، بل لعل شاعراً معاصراً لم يبلغ من إقذاعه ما بلغه ، إذ ملأ أهاجيه بالفحش والألفاظ البذيئة ، حتى لنرى شاعراً مثل بشار المعروف بخبث لسانه يخشاه خشية شديدة ، حتى ليرتّب له فى كل سنة مائتى درهم رجاء أن يكف عنه لسانه ، وأتاه فى بعض السنين ، فحاول أن يرده ، فما هو إلا أن تمم بشطور مقذعة حتى فزع بشار ودفع إليه المائتى درهم وقال له : لا يسمعنّ هذا منك الصبيان ، وأتاه مرة أخرى ، فلم يسرع له بالضريبة ، وما إن قال :

سبع جوْزاتٍ وتِينــه فتحــوا باب المدينه

إن بشار بن بُرْدٍ تَيْسٌ أعمى فى سفينه

حتى رمى له بشار بالدراهم . وذكر بشار للصبيان يدل على شعبية أبى الشمقمق وأنه كان يشتق شعره من ألفاظ العامة ، ولذلك كان سرعان ما يدور على ألسنة الغلمان . ومن طريف هجائه قوله فى بخيل :

كفَّناه قُفْلٌ ضاع مفتاحُهُ قد يئِسَ الحدَّادُ من فَتْحِهِ

وقوله فى بعض الثقلاء :

أَسمجُ الناسِ جميعاً كلُّهم كذُبابٍ ساقطٍ فى مَرَقهْ

ولعل أشعاراً له لم تمس قلوب الشعب كما مستها أشعاره التى صوَّر فيها فقره وبؤسه ، ويُرْوَى أن بعض إخوانه دخل عليه يومًا فرأى سوء حاله ، فأراد أن يخفف عنه ما هو فيه ، فقال له أبْشِرْ أبا الشمقمق فإنه رُوِى فى بعض الحديث أن العارين فى الدنيا هم الكاسون يوم القيامة ، فقال ساخراً : إن كان والله ما تقول حقا لأكونن بزَّازًا يوم القيامة ، ثم أنشأ يقول :

أنا فى حالٍ تعالى الله ربِّى أىَّ حالِ
ليس لى شىءٌ إذا قيل لمن ذا ؟ قلت : ذا لى
ولقد أُهزِلْتُ حتى مَحت الشمسُ خيالى
ولقد أفلستُ حتى حَلَّ أكلى لعيالى

وله أشعار كثيرة يصور فيها فقره وإقلاله وأنه لا يقتنى حتى ما يكسو به السرير الذى ينام عليه وأنه لا يملك من المتاع شيئا إلا حصيرة وبعض السمار والأطمار الخلقة ، يقول :

لو قد رأيت سريرى كنت ترْحمنى الله يعلم مالى فيه تَلْبيسُ[1]
والله يعلم مالى فيه شابكةٌ إلا الحصيرةُ والأطمارُ والدّيس[2]

---

(١) يريد بالتلبيس مايكسى به السرير من الحشية والملاءة .

(٢) الشابكة : ما يضم بعضه إلى بعض . الديس : هو المعروف فى مصر باسم السمار .

obeikandl.com

ويقف مراراً ليصور سوء حظه وأنه أينما اتجه لم يكسب شيئا ، بل يقعد به العُدْم الذى تعوّده ويقعد به سوء البخت الذى يلازمه فى حِلّه وترحاله ، حتى ليجفّ البحر الذى يخوضه ، وحتى ليستحيل الدر فى يده حصى وزجاجاً والماء العذب ملحا لا يسوغ شرابه ، وفى ذلك يقول :

لو ركبت البحارَ صارتْ فِجاجا ... لا نرى فى متونها أمواجا
ولو أنى وضعتُ ياقوتةً حَمْـ ... ـراء فى راحتى لصارتْ زُجاجا
ولو أنى وردتُ عَذْباً فُرَاتاً ... عاد لا شك فيه مِلْحاً أُجاجا

ويصور لنا مسغبة عياله ، وهو فى الواقع إنما يصور مسغبة الطبقة العامة فى بغداد التى كانت تكدح لتملأ الطبقة المترفة بطونها ، بينما تعيش هى فى الضنك والشقاء ، متمنية أن تجد الخبز والإدام ، بل قد تعدم الإدام والخبز جميعاً ، ومن طريف تصويره لذلك قوله :

ما جمع الناسُ لدنياهمُ ... أنفعَ فى البيت من الخُبْز
والخُبْزُ باللَّحْم إذا نلته ... فأنت فى أمْنٍ من التَّرْزِ[1]
وقد دنا الفِطْر وصبيانُنا ... ليسوا بذى تَمْرٍ ولا أُرْزِ
كانت لهم عنزٌ فأُودِى بها ... وأجدبوا من لبن العَنْز[2]
فلو رأوا خُبْزًا على شَاهِق ... لأسرعوا للخبز بِالجَمْزِ[3]
ولو أطاقوا القَفْز ما فاتهم ... وكيف للجائع بالقَفْزِ

ويكثر من حديثه عن البراغيث ولذعها لجسده ، كما يكثر من حديثه عن خلو داره من الطعام ، حتى لتعبث بها الجرذان وابن عرس ، بل إنها لتدرج من حوله وتعبث ببعض جسده ، وتيأس منه ومن طعامه ، فتفر على وجهها تبحث عن غذائها ، ولا يبقى معه فى البيت سوى السنور أو الهِرّ ، وإنه ليبكى

---

(١) الترز : الهلاك .
(٢) أودى بها : هلكت .
(٣) الجمز : القفز .

حاله ، إذ لا يجد الفأر الذى تعوَّد أن يصيده ، فيفارقه إلى غير مآب ، ومن بعض قوله فى ذلك :

ولقد قلتُ حين أَجْحرنى البَرْ ... دُ كما تُجْحِرُ الكلابُ ثُعالَهْ[1]
فى بُيَيْتٍ من النضارة قَفْرٍ ... ليس فيه إلا النَّوَى والنُّخاله[2]
فارقته الجُرْذان من قِلَّة الخَيـ ... ـر وطار الذبابُ نحو زُباله[3]
هاربات منه إلى كل خصبٍ ... حين لم يرتجين منه بُلاله[4]
وأقام السِّنَّوْرُ فيه بِشَرٍّ ... يسأَل الله ذا العُلا والجَلاله
أن يرى فأرةً فلم ير شيئاً ... ناكساً رأسه لطول الملاله
قلت صَبْرا يا نازُ رأسَ السَّنا ... نير وعَلَّلْته بحُسن مقالَه[5]
قال : لا صَبْرَ لى وكيف مقامى ... فى قفارٍ كمثل بِيدِ تَبَالَه[6]
ثم ولَّى كأنه شَيْخُ سوءٍ ... أخرجـــوه من مَحْبِسٍ بكفاله

وعلى هذا النحو كان أبو الشمقمق يخلط تصوير تعاسته وتعاسة أمثاله من أفراد الشعب بالفكاهة ، وكان ما ينى يصور أحاسيس الفقر وضيق ذات اليد ، وكان الناس يقبلون على شعره إقبالا شديدا ، حتى ليروى الجاحظ فى الجزء الأول من حيوانه أن منهم من كان ينفق على كتابته نفقة واسعة ، متخذاً له الجلود الكوفية الثمينة . وفى طبقات الشعراء لابن المعتز أن أبا الشمقمق توفِّى فى حدود الثمانين ومائة ، ولعل الخبر الذى ساقه عنه والذى يدل على أنه لحق عصر المأمون منحول عليه .

---

(١) أجحره : أدخله فى الجحر . ثعالة : الثعلب .
(٢) بييت : تصغير بيت . النضارة : النعيم .
(٣) زبالة : موضع فى صحراء الكوفة .
(٤) بلالة العيش : ما يسد الرمق .
(٥) ناز : اسم السنور بالفارسية .
(٦) بيد : جمع بيداء وهى الفلاة . وتبالة : بلدة فى الطريق من الطائف إلى اليمن .